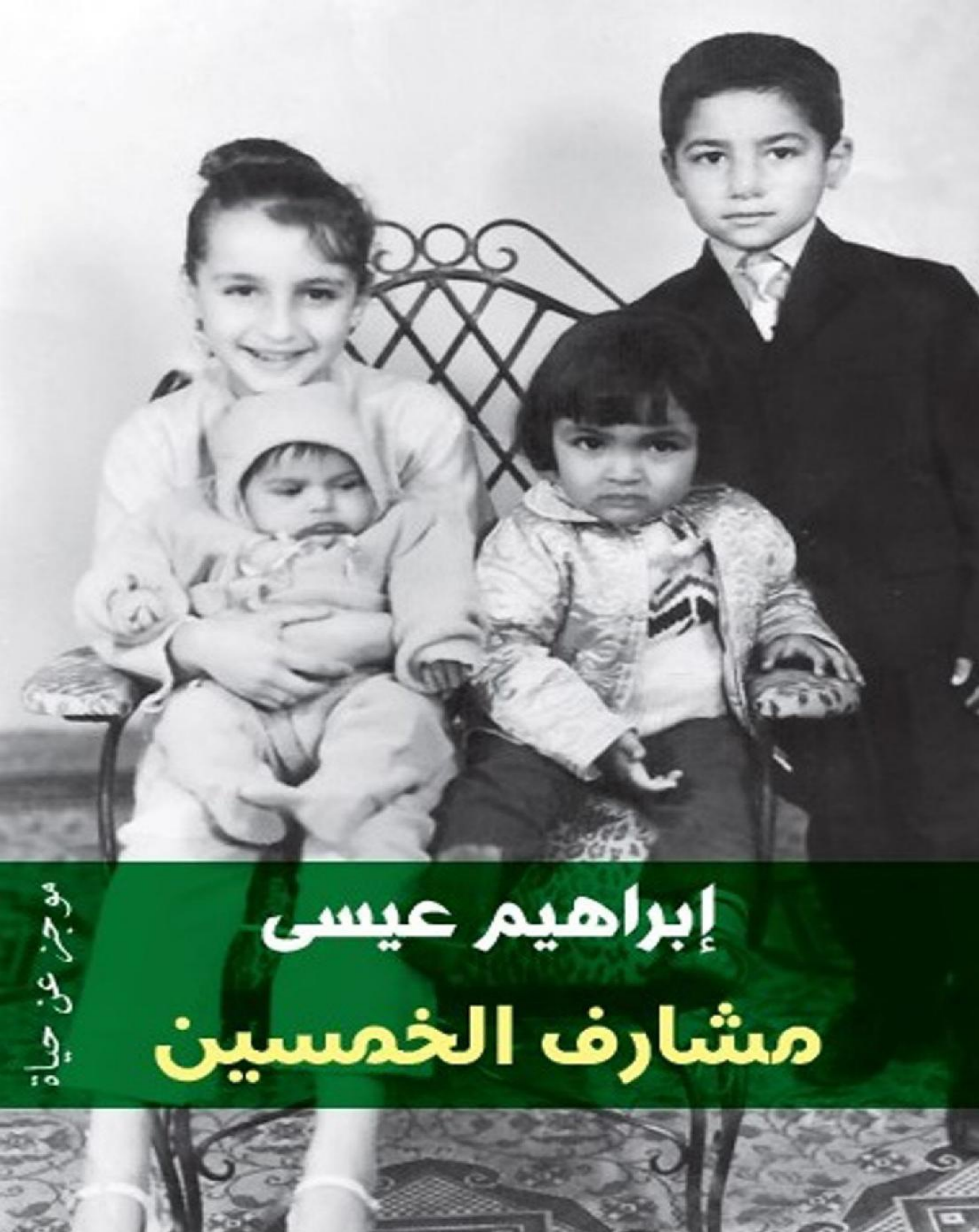

إبراهيم عيسى
مشارف الخمسين
موجز عن حياة

مشارف الخمسين

إبراهيم عيسى

مشارف الخمسين

موجز عن حياة

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي: عاليا عبد الرؤوف
جرافيك: عبد العظيم جمال القلشي
تنفيذ: المصطفى نجدي

عيسى، إبراهيم.
مشارف الخمسين: موجز عن حياة / إبراهيم عيسى
القاهرة 2015 .
ردمك: 9789776467378
1- عيسى، إبراهيم - المذاكرات.
2- الصحفيون المصريون
3- الإعلاميون المصريون

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 20107 / 2015

2 4 6 8 10 9 7 5 3 1

متسلقًا على سور الجنة،

أرمى له هذا الكتاب

لعله على ضفة نهر جنته .. يقرؤه

إلى أبى

إبراهيم



1

□ كان أبى يستلقى على ظهره فوق السرير، وكان يضع ساقه اليمنى فوق ركبته اليسرى ويمسك بالقصة مفتوحة على صدره ويقرؤها لى، كنت أصغر من أن أعرف القراءة أيامها، ما زلت أذكر المشهد ولا أذكر القصة. هل ما زال هناك آباء يقرؤون قصصًا لأطفالهم؟

2

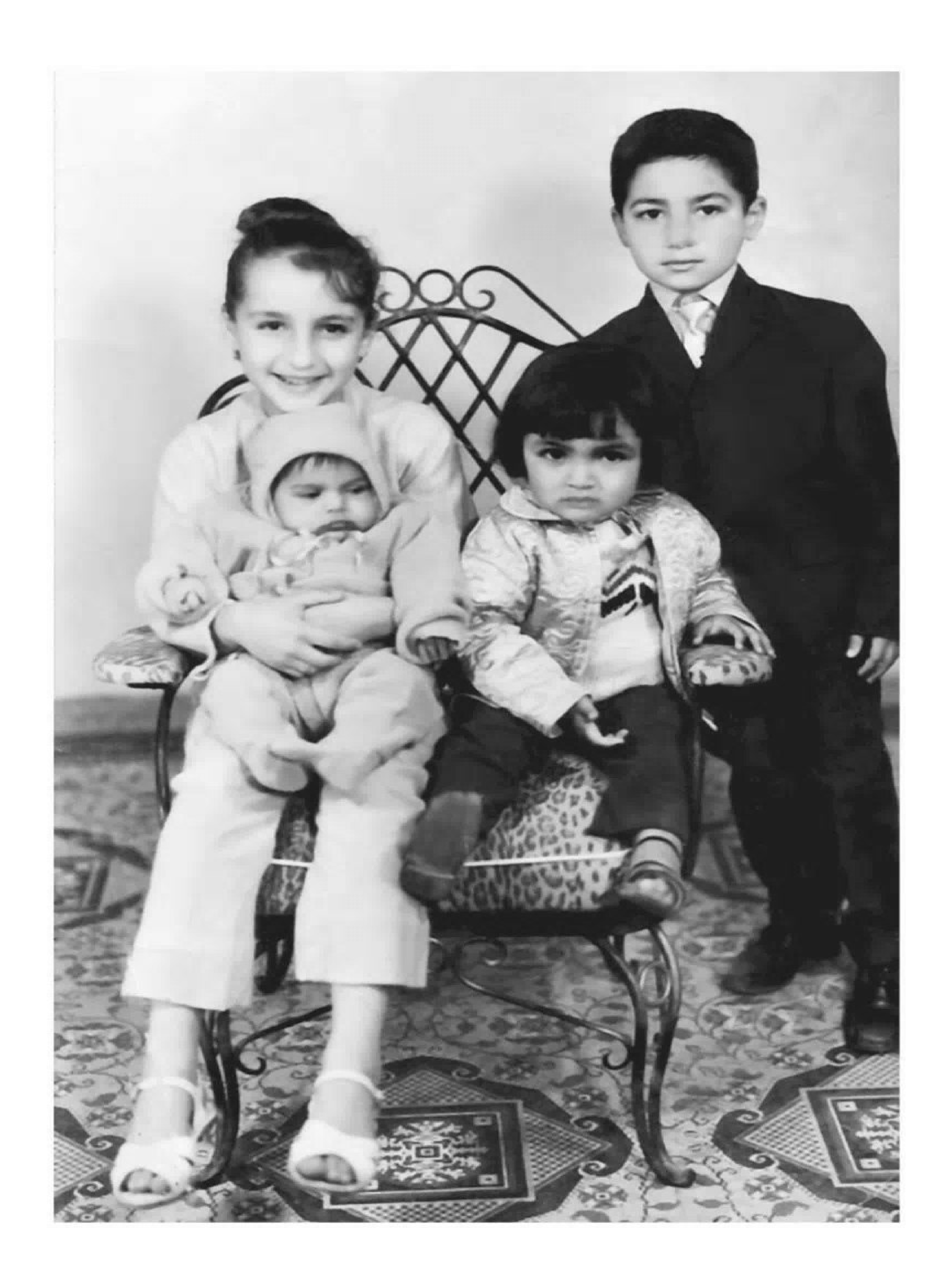
□ كان الأطفال زمان يرتدون الوشوش الورقية على وجوههم، ويربطون الأستيك الموضوع على جانبيها خلف آذانهم، الوشوش مرسومة بسذاجة وتحمل أشكالًا لعفاريت أو وحوش، وثقبَين مكان العينَين للنظر من خلالهما، يحاولون بها إخافة أصدقائهم، ولم يكن أحد يشعر بالرعب. وحدهم أهالينا الذين يستجيبون للعبة فيمثِّلون الخوف منهم. هل كانوا يعرفون أنها ستكون وجوههم الحقيقية حين يكبرون؟

3

□ اتصلت بها أحدِّق فى اسمها مكتوبًا على شاشة المحمول، وبمجرد ما ردّت انفتحت أنا فى البكاء، نحيب متواصل عميق متحشرج، عويل، بربرة وشهيق، الحزن يقتلع قلبى، أكاد أحسّه ينتزعه من جسدى ويلقى به تحت قدمى، زلزلة روحى عنيفة وهادرة، كنت قد أظهرت تماسكًا أمام الجميع، وقمت بكل واجبات الرجل الذي فقد طفله في اليوم الرابع من عمره، قمت بكل المهام وصبرت أمام القُرب والغُرب، عُدت للبيت وحدي وطلبتها فى التليفون وانطلقت فى بكاء محموم قبل حتى أن تنطق بكلمة، الغريبة أننى لم أغلق التليفون لأبكى وحدي ولا هى تكلَّمت لتهدّئ روعى، أو تقطع بكائى كأني أبكى كى يسمعنى أحد، أريد أن أعلن حزنى وأعرّى ضعفى، وهى متفهمة لدورها تمامًا، هى مؤتمنة على هذا الحزن، تعبت واتهمدت وسكت بعد وقت ليس قصيراً، قلت لها أنا حقفل التليفون دلوقت، قالت حاضر.

4

□ وضع أبى شريط الكاسيت فى الجهاز، ضغط على الزر الأحمر فى الكاسيت، علامة التسجيل، كان قد طلب منّا أن نتوقَّف عن الحركة والصخب فى الصالة، فذهبنا للعب الصامت، كان قد بدأ فى قراءة خطبته التى سوف يلقيها فى حفل المولد النبوى الشريف فى جموع المدرسة هنا فى بلاد الغربة، حيث أعير للتدريس فيها، كان يتدرَّب عليها فى البيت ويسجل أداءه، لكن أبى أخذته الحماسة فى التسجيل فتألَّق كأنه أمام جمهور المدرسة، وكانت فخامة صوته وجلال أدائه وبلاغة عباراته قد سلبتنا تمامًا من اللعب حتى انتهى من الخطبة، فإذا بصوت أُميّ يأتى من المطبخ عاليًا: صقفوا له يا ولاد، فاندفعنا نصفّق بحماس وفرح، ظلّ هذا الشريط معنا أربعين عامًا تالية، وينتهى بصوت أُمِّى الفخور بأبى: ((صقفوا له يا ولاد)).. كلما أنهيت حلقة من برامجى كان طيف صوتها يغمرنى، وأسأل: ((هل يمكن أنها تقول الآن صقفوا له يا ولاد؟)).



5

□ **أشهر حلويات أيامنا كانت الفُندام، لا أذكر طعمه الآن، لكننى متأكد أنه كان مذاقًا متواضعًا قياسًا لما جرى على ألسنتنا من شيكولاتات بعد ذلك.**

كانت أيضًا الحلاوة بشعر معجزة السعادة للريفيين أمثالنا. أيضًا التسقية باللبن والسكر أو المخروطة التى هى عجين مبروم مغموس فى اللبن والسكر وقد اختفى النوعان تقريبًا من حياتنا، قطع الجاتوه أو البسطا كما يقول الإسكندرانية (هل لا يزال يسمونها كذلك) كانت ترفًا ورفاهية مذهلة، الآن تقدمت جدًّا الشيكولاتة فى مصر وتعددت أشكال وأصناف الحلوى، لكنها لم تغلب أبدًا إحساسنا بالسعادة والرضا والفرح بالعسلية وغزل البنات، لعله الحنين أو الولع بالذكريات لكن المؤكد أن حلاوة الحياة لا تقاس بالحلويات!

6

□ كانت سينما وحيدة فى بلدنا.. صيفية مكشوفة، وكانت هى بيت الأحلام فى هذه المدينة الصغيرة. كنت من رواد الصالة، حيث تذكرتها سبعة قروش ونصف، بينما فوقنا البلكون بعشرة قروش ونصف.

أما الترسو - وهى الدكك الموضوعة أمام الشاشة - فهو بثلاثة قروش ونصف.

كان الإزعاج الوحيد الذى يشوب هذه المتعة هو عدد من الصبية الذين أتيح لهم دخول البلكون، حيث يرمون الجالسين فى الصالة بالطوب وقشر اللب وأعقاب السجائر، وهم يصيحون عليهم ((يا فقرا يا أولاد . . .)) أصَنَعَت ثلاثة قروش هذا الفارق الطبقى الهائل؟ أهؤلاء هم بعض فقرائنا حين يتخيلون أنفسهم فى البلكون؟!



7

□ لم أفهم أنها إهانة ولا أظن معلمتى تصورتْها كذلك، ذهبت ناحية السبورة بمنتهى الانصياع الطيب ووقفت فاتحًا فمى كما أمرتْنى. كانت تدرس لنا فى حصة العلوم، قالت موجهة كلامها إلى زملائى فى الفصل:

((العادات السيئة للأكل تجعل الأسنان مسوسة مثل هذا الطفل تمامًا))، وأشارت إلىّ وخصّت أسنانى بطرف المسطرة، عدت إلى الدكة، غمرنى بعدها الإحساس بألم الإهانة من سخرية زملائى. لم أحك هذه القصة لأمى أبدًا، لكن الغريب أننى لم أحافظ على عادة غسل الأسنان يوميًّا ولم أتوقف عن أكل الحلويات، ومع ذلك كنت الوحيد تقريبًا فى محيطى العائلى الذى لا يشكو من أى آلام فى أسنانى، رأيت من يعمل بصرامة للحفاظ على صحة أسنانه يطارد انهيارها، بينما أنا المهمل، رغم إهانة الطفولة، لا أعانى منها.

ليس بالضرورة نفس البدايات تؤدى إلى نفس النهايات، لذلك أتابع بكل حماس ورضا تعليمات زوجتى لأطفالى بغسل أسنانهم عدة مرات يوميًّا.

8

□أتأخر فى العودة إلى الشقة المفروشة التى أسكنها مع أصدقائى، كنا فى ليل الشتاء، حيث شوارع الجيزة الخلفية هادئة، تظهر لى الكلاب الأربعة على الناصية الوحيدة المؤدية إلى سكنى، لا شىء أسوأ من أن يكون الكلب ضالًّا، تسمرت وتجمدت يدى على كتبى عندما زاد عددهم ثم بدؤوا فى التحرك نحوى وحولى، ونباح مكتوم أشبه بمسح زور تأهبًا للأهم.

تذكرت صاحبى الصعيدى الذى وصل إلى اقتناع كامل بأن كلاب القاهرة ليست كلابًا أصلًا، بالمقارنة بكلاب الصعيد، لا قدرت على الرجوع فيجروا ورائى، ولا على التقدم للبيت فأمر من بينهم وأستفزهم فيهاجمونى، قطعوا طريقى وأنفاسى.

والحيرة هى بنزين التوتر، أخيراً جمعت شجاعتى من شتات روحى ومشيت بينهم، فاستغربوا مبادرتى وحدقوا وتشمموا مشيتى، أَهِىَ الشجاعة أم الاستسلام للقدر؟ أصعب لحظات حياتك تلك الَتى تواجه فيها كائنات ضالة، تكون الكلاب الضالة هى أضأَلَها شأنًا.. قال لى صديقى عندما وصلت: ((عملت إيه مع الكلاب؟)).

لعله سؤال حياتى الذى يلاحقنى من يومها.

حلاوة الحياة
لاتقاس بالحلويات!



9

□ ذهبت إلى الأستاذ ميشيل كى أحصل على درس أسبوعى فى الرسم، الرسم فى المجموع والامتحان اقترب، بدأ أستاذ ميشيل تعليمى طرقًا سهلة وآلية جدًّا لرسم اللوحات التى سيطلبها الامتحان، جمال الطبيعة يقتضى تعليمى كيفية رسم نخلة وبطّة تتكرَّر فى اللوحة مع زرقة ماء النيل وشمس فى أعلى الرسمة، جاء السؤال نفسه فى الامتحان فعلاً وحصلت على ١٨ من عشرين، لم أتابع دروس الرسم بعدها، لكننى عرفت من يومها أن داخل كل واحد منكم رسامًا، لكنه لم يصادف الأستاذ ميشيل ليعرف.

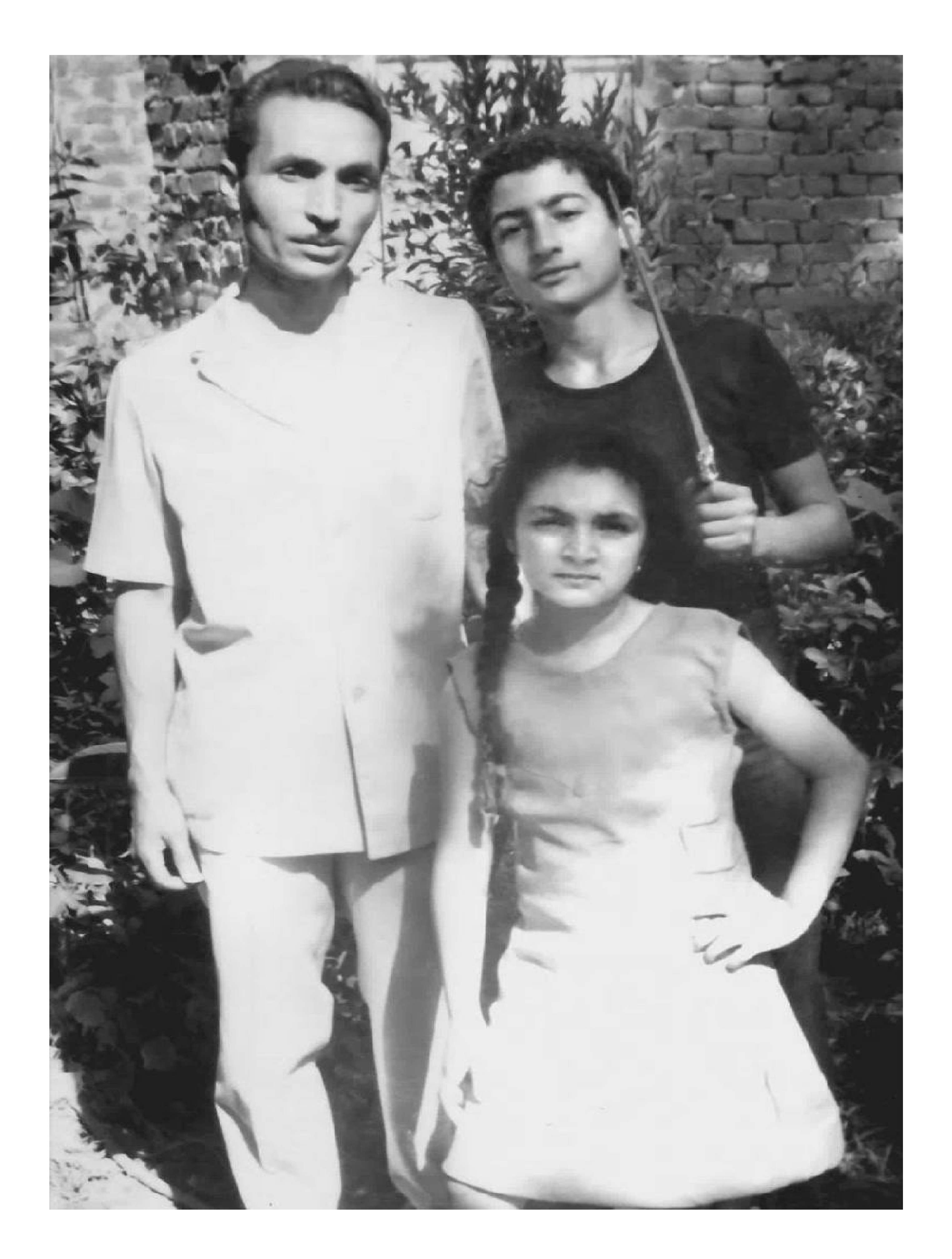
10

□ كان جامع النصر مكتظًّا بالمصلين كل جمعة، ثم تراجع الإقبال مع رجعية البلد، وانهزم الشيخ نفسه مع غلبة السلفيين عليه، حتى إن لحيته المشذبة كبرت وطالت، كان المتفتحون بالذات يذهبون إلى هذا الشيخ الكفيف للاستماع لخطبته المكثفة التى لا تستغرق أكثر من خمس وعشرين دقيقة، يمكن أن تضبط ساعتك عليها وتنتهى بجرعة فقهية للشباب، الغلبة فى ملابس المصلين كانت للقميص والبنطلون، أما مسجد التوحيد فالخطبة فيه كانت تمتد إلى أكثر من ساعة، وكله جلاليب ومعظمهم ملتحون، كنت تعرف توازن التشدد والتنوير فى بلدنا من الإقبال على الجامعين. كان هذا من ربع قرن مضى، يا ترى ما الوضع الآن؟

11

□ مجرد أن يظهر ميكروباص كان المئات يندفعون نحوه، أسوأ ما يحدث حين يتمنع السائق ويقول إنه لن يعود للقاهرة، إنه صباح السبت أصعب الصباحات فى مدينتنا، حيث يسافر يوميًّا الآلاف إلى العاصمة للعمل والدراسة هناك. القطارات الوسيلة الأولى للسفر لكننا نلجأ للميكروباصات والبيجو فى أيام السبت أكثر.

لسبب ما فإن السائقين يومها فى حالة من التبغدد والتمنع، لا يفكرون فى اعتزال المهنة تقريبًا إلا صباح هذا اليوم تنكيلاً بالمئات الذين يجرون وراء شبح كل سيارة ويندفعون إلى أبوابها ويتصارعون للحاق بأشغالهم ويدوسون على بعضهم للحصول على توصيلة. كيف كنا نواصل حياتنا فى هذا اليوم بعد بدايته المعذبة، مع كل بداية صعبة فى حياتى أتذكر بداية السبت فى موقف الأجرة ببلدنا.



12

□ لم يضربنى أبى أبدًا. ما زلت مندهشًا وأنا على مشارف الخمسين، كيف لم يؤدبنى والدى فى طفولتى ومراهقتى ولو بصفعة خفيفة على وجهى بل ولا بضربة سريعة على كتفى؟! لم أكن طفلاً استثنائيًّا ولم أكن مريضًا مثلاً.

لكن والدى العالم وأستاذ اللغة العربية _رحمه الله فهو أجدر خلقه برحمته_ لم يحدث أنْ ضرب تلميذًا فى فصله ولا ابنًا أو ابنة فى بيته. كلما عشت وشهدت انفلات أعصابنا فى تعاملنا مع أطفالنا ومدى ما تثيره تصرفات أبنائنا فينا من غضب وحنق أسأل نفسى مذهولًا: ((كيف نستطيع التماسك الانفعالى أمام أطفالنا؟)) والدى فى منهج فذ لم يستسلم للإغراء الذى يجذبنا جميعًا، حيث نملك على أبنائنا السلطة ونشعر تجاههم بالمسؤولية.

السلطة والمسؤولية تدفعان إلى الأذى الذى نستطيع أن نبرره دومًا بنياته الطيبة ودوافعه الضرورية، لكنه يظل أذًى.

13

□ كنا فى القناطر حينما كانت قناطر سعاد حسنى وهى ترقص بين أشجارها وتغنِّى لها ((الدنيا ربيع)) ، وليست قناطر الآن الهَرِمَة المهملة، كل زملائى في الرحلة ركبوا العجل. لم تكن رحلة إلى القناطر إلا لو فيها عجل (بالمناسبة لا أحب كلمة دراجات، تليق فقط بترجمات القصص الأجنبية) .

لكننى الوحيد الذى لم يؤجر عجلة ولا ركبها ولا جرى بها. كانت مهمتى أن أحكم مَن فيهم السائق الأفضل. لم أتعلم سواقة العجل، لأننى خفت من أنْ أقع وأتعور كما حدث لأصحابى عندما تعلموها، فكلما صعدت فوق العجلة تراجعت خوفًا.. لا.. لا. أحسن أقع. الغريب أن أحدًا من أهلى لم يقاوم أو يقوِّم هذا الخوف عندى، ولا واحد من أصحابى سخر من خوفى، آه حين يترك من حولك خوفك يحكمك. الآن أعرف أنه كان لا بد لى أن أقع كى أتعلم. كم مرة وقعت في حياتى من غير سواقة العجل ومع ذلك قمت! هل يمكن أن نعيش أصلاً دون أن نقع؟

14

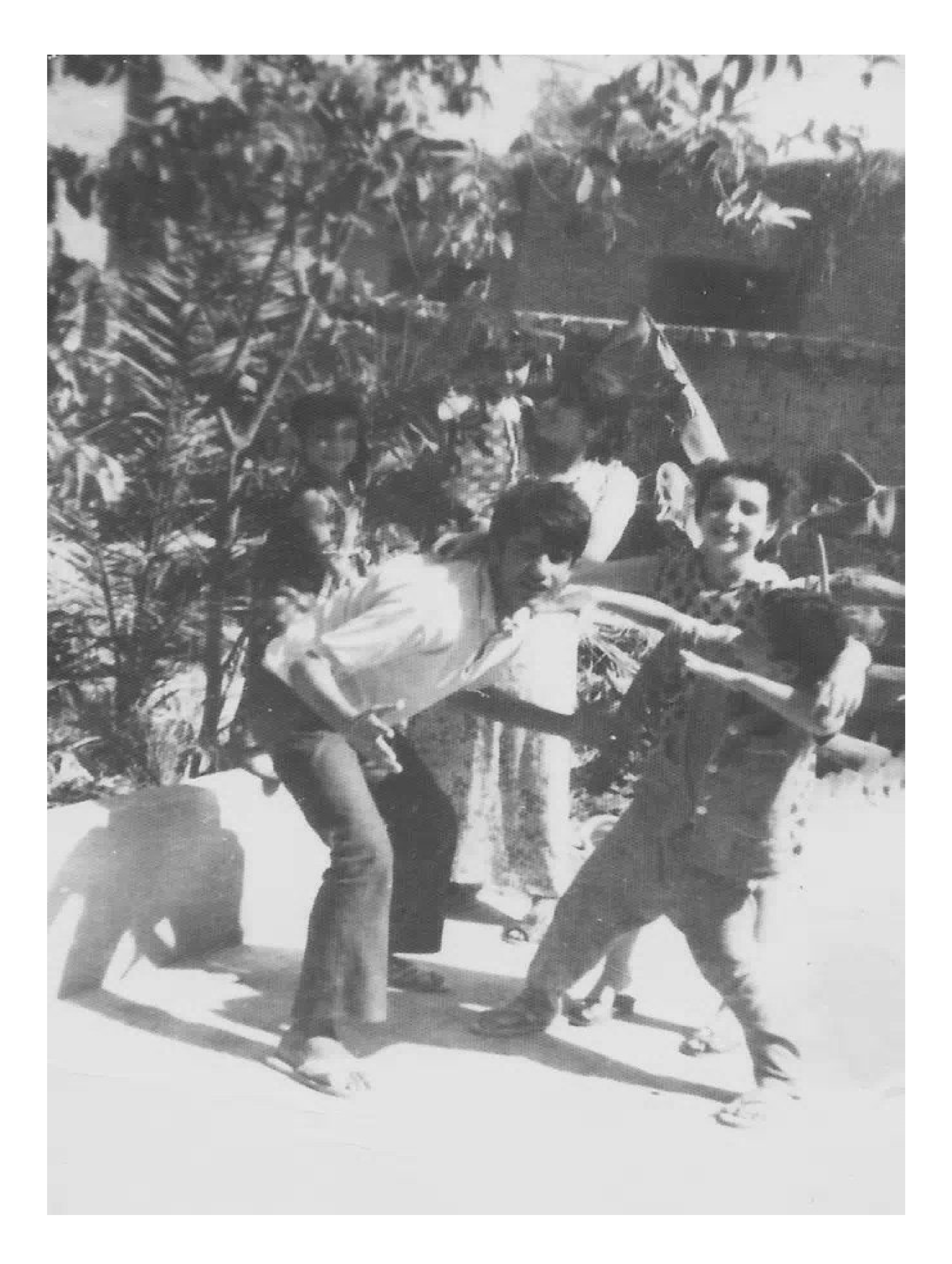
□ كانت المدرسة كلها تعرف هذه الطريقة التى اعتمدها مدرس اللغة الإنجليزية للعيال البُلدا، لكنها صارت صيحة المدرسة كلها. مذاكرة الكلمات الإنجليزية بأن نكتبها بحروف عربية ونحفظها كأنها كلمة عربى، ما زلت أتذكَّر مدى تَشَكِّى صاحبى من صعوبة كلمة ((إميديتلى)) وهو يكتبها بالحروف العربية وينطقها بطريقة ريفية مرتبكة، صاحبى حصل على الدرجة النهائية فى اللغة الإنجليزية، وظل يتفاخر بأنه جاب الإنجليزى على ملعبه ولم يذهب إلى ملعب الإنجليزى. الآن كلما نطقت كلمة إنجليزية أمام أبنائى انطلقوا فى الضحك والتهكُّم على نطقى، لا أعرف ماذا يفعل أبناء زميلى معه الآن حين يتجلَّى ب ((إميديتلى)) .

لكن المؤكَّد أنه كلما أدركت إنجليزيتى المضعضعة أوقن أننا نحتاج إلى الذهاب لملاعب الآخرين، فلا يمكن أن نفوز ونحن نلعب على ملاعبنا فقط!

15

□ تندلع الخناقات بيننا فى اللعب على أتفه الأمور، لا يبحث الطفل المنفعل عن أسباب وجيهة كى يصرخ فى زميله، بعضنا كان يلجأ فى الخناقة إلى أسرع طريقة لإنهائها، أن يخطف النظارة، إنه يدرك نقطة الضعف بوضوح، ويستغلها بمنتهى الفجاجة، ليس هناك أى نوع من الفروسية، بل طفولية وغرائز عدوانية وقلّة أصل فطرية، بدلًا من إدارة صراع متكافئ، انزع النظارة عن عيون خصمك فتنتصر، بل يأتيك الخصم أو أصحابه للتفاوض معك لإعادة النظارة، لقد حوَّلت الخلاف إلى منطقة أخرى تمامًا، ثم أصبحت يدًا عُليا فى الخناقة، كم واحد فيكم فعلها؟ بل أحيانًا للتهكُّم والسخرية والرغبة فى التشفِّى فى الضعف، بل يفعلها أصحاب النظارات فى بعضهم أحيانًا، الأطفال وحدهم الذين يملكون التعامل مع الخسَّة باعتبارها حقًّا، لكن ماذا عندما نكبر، ونفعلها؟ أكره هذا النوع من الخصومة، لهذا السبب بالذات فإن إحدى الآيات الثلاث للمنافق أنه إذا خاصم فجر.. وخطف النظارة!

الخصومة لا المحبة هى التى تكشف لك نفسك وناسك.



16

□ أجرى بسرعة إلى البلكونة لأراهم وهم يخرجون من باب بيتنا، نحو ثلاثين شخصًا من جيراننا وقد انتهوا من مشاهدة حلقة المسلسل معنا فى البيت، كنا أول بيت فى الشارع نشترى جهاز التليفزيون، وكان بالنسبة إلى الجيران بمثابة سينما مفتوحة لاستقبالهم مع مشاريب مجانية، اختفت هذه المشاهدة الجماعية فى حياتنا تقريبًا، حتى فى القهوة صار أكثر من تليفزيون وأكثر من قناة. ما زلت أذكر جارنا حين اشترى تليفزيونًا، إذ قرر أن يضعه فى البلكونة ويعرضه للشارع، حيث يشاهده الجيران دون الدخول إلى البيت، جاء التليفزيون الملوَّن فقرر أحد جيراننا أن يحوِّل جهازه الأبيض وأسود إلى ألوان، فوضع ورقًا شفافًا ملونًا على الشاشة نصفه أحمر والتانى أخضر، فكان وجه الممثلة يظهر أخضر لغاية الأنف، وأحمر من بعده، فكان جارنا يضحك ساخرًا: ((مكياجها وحش قوى الممثلة دى)) .

أحيانًا نلون الحياة ثم لا تعجبنا الألوان.

17

□ كانت مهمتى هى العزف على الأكورديون فى السلام الجمهورى. يقف أربعة من الطلبة بجوار السلم المؤدّى إلى الفصول فى مواجهة الحوش، ونعزف الموسيقى، أحدنا بطبلة دربكة معلّقة على صدره وذراعيه، وآخر بالإكسيلفون، وثالث بترومبيته، وكنت أنا بالأكورديون. واضح أننى كنت عازفًا فاشلاً جدًّا، ففى الأيام التالية انضم صاحبى وعزف هو على الأكورديون، وكان رائعًا لدرجة أنه احترف بعد ذلك حفلات وأفراح المدينة كلها، حاول المدرس المشرف أن أعزف إكسيلفون، لكننى تغابيت ورفضت. طفولة العقل هى التى تجعلك تكفّ عن العزف لو لم تكن العازف الأول.

18

□ **قصر الثقافة فى مدينتنا لم يكن قصرًا، كان بيتًا، الحقيقة أنه كان شقَّتَين أرضى فى عمارة مساكن شعبية، ثم صار مكانًا أوسع فى الدور الأرضى من مركز الشباب، لكننى أحب تعبير بيت ثقافة أكثر، ربما لهذا الإحساس الدفىء بأنه على صغره وضيقه وضيق صدر موظفيه فإنه بيتك، كنا نكوّن فرقًا مسرحية وأخرى موسيقية، وكنا نقيم ندوات (نسميها الاسم الرومانسى أمسية شعرية)، كان الشعراء حين يأتون من القاهرة والمحافظات للتمسّى الشعرى يستضيفهم شاعر المدينة الأهم فى منزله، ما زلت أذكر هذه الليالى التى صار معظم أسمائها نجومًا، بينما شاعر المدينة ظل فيها مُدرسًا مخلصًا ومجهولاً خارجها.. ليس كل مَن تعرفهم هم أحسن مَن يمكن أن تعرفهم.**

19

□ **المطر ينهال على رؤوسنا في الشارع ويضرب أسقف السيارات وزجاجها وتطرطش علينا عجلاتها فنجرى منزعجين ومتوترين إلى الممر الذى يقودنا إلى المقهى، صبية القهوة تصرفوا كعادتهم مع المطر، فرشوا نشارة الخشب على الأرضية، سحبوا الكراسى من الرصيف، قفلوا الشبابيك وواربوا الباب. المقهى مزدحم وصاخب كأنه لا مطر فى الخارج، فقط زادت مشاريب الحلبة والسحلب وكان التليفزيون يذيع حلقة من ليالى الحلمية، جلسنا بعدما تبادلنا التحيات مع المعلم وصبية القهوة الذين أسرعوا وأحضروا الطاولة والمشاريب المعتادة، خرجنا بعد ثلاث ساعات فوجدنا الجو صحوًا والشارع مغسولاً ودرجة الحرارة مرتفعة. أكانت الطبيعة هى التى تغيرت أم أن دفء المقهى الذى غيرنا؟**



20

□ كنا نحن الثلاثة قد قرّرنا التشارك فى شراء لغز المغامرين الخمسة. سعره خمسة عشر قرشًا نقسّمها على الثلاثة يبقى كل واحد فينا يدفع شلنًا، ونقرؤه بالتوالى ويحتفظ كل واحد فينا مرة بنسخة اللغز، كنت قادرًا على الـ ١٥ قرشًا لوحدى، فلماذا لجأت إلى المشاركة؟ عمومًا انفضَّت الشركة بيننا لأنى كنت أقرأ اللغز فى ساعتَين بينما شريكاى محتاجين يومين تلاتة لقراءته، فشعرت بالتعطيل و((سلامو عليكم)). هل تقاسم هذا اللغز هو ما جعلنى أكره قراءة أى كتاب فتحه وقرأه غيرى قبلى؟ كما أننى لا أقبل بإعارة كتبى لغيرى. أشترى وأهديهم ولا يمكن أن أعيرهم كتابًا من مكتبتى، ينكشف الإنسان فعلاً عندما يحب، يظهر على حقيقته ويبدو أنانيًّا جدًّا ولديه رغبة امتلاك هوسية.

الحمد لله أنها جَت على الكتب!

21

□ صافحنى متحمسًا، كنت أشعر أننى أعرفه، ملامح صديق قديم أو صاحب طفولة، ابتسم وعرّفنى بنفسه، أدركت شخصيته فورًا، إنه الطفل الذى كان يمثِّلُ فى أفلام السبعينيات ويكتبون قبل اسمه اللقب الشهير((الطفل المعجزة))، كان أصحابى أيامها غيورين جدًّا منه ويحسدونه، هم الريفيون البعيدون عن القاهرة، بينما هو الطفل المعجزة الذى يتقاضى مئات الجنيهات ويُقَبّل نجمات السينما (على اعتبار أن نيللى أمه فى الفيلم وشمس البارودى أخته، فننهار نحن فى السينما الصيفى) تركنى ومضى، آه كبرنا جميعًا وفقدنا طفولتنا ببراءتها ودهشتها وأحلامها، ولكنه أصعبنا حالاً، فهو الطفل الذى فقد معجزته عندما كبر.

ليس معنى أن تكون فى قلب
الحدث أنك ترى

22

□ اتصلت بالمستشفى وقلت لهم على اسمه ورقم الغرفة، طلبوا منّ الانتظار على التليفون حتى يحوّلوا المكالمة، استغرق وقتًا طويلً حتى جاء ردُّه، لماّ عرف أننى المتصل انطلق فى صخب مهللً واعتذر، لأن العنبر ليس فيه تليفون وتأخَّر حتى يأتى إلى السويتش للرد. شعرت بالندم واعتذرت بالذهاب إليه فى اليوم التالى فى المستشفى التابع لعمله الحكومى، كان فى عنبر مزدحم يملؤه بالصخب والضحك والذكريات، وكان أشهر مريض بالمستشفى، وأخذ يقدّمنى للمرضى والعاملين والأطباء، ويروى لى قصصًا عن كلٍّ منهم ويشتم بعضهم فيضحكون له. بعد أيام تلقّيت تليفونًا الساعة الثانية صباحًا: ((إنت فلان؟ نعم، لقد مات خالك)).

ذهبت إلى البيت ودخلت على جثمانه الُمعد للدفن، لم أستطع أن أمد يدى لأكشف الغطاء عن وجهه، قررت أن أحتفظ بوجه خالى الذى لم أرَه فى حياته كلها حزينًا أو حتى مهتمًا أو مهمومًا، كان يحصّن نفسه أمام الحزن باللامبالاة، بالتأكيد ألقى على ملك الموت نكتة ضحكا لها سويًّا قبل أن يرحل كلاهما، واحد إلى حياة أخرى والثانى إلى مهمة أخرى.

23

□ ضربنى الفزع فى قلبى بعنف، التفت حولى لاكتشف أننى تُهت، رُحت وجئت ووسط زحام البلاج وتكدُّس الشماسى بحثت عن عائلتى بينَها فلم أرَ إلا وجوهًا غريبة منشغلة عنّى، بلاج ميامى مزحوم بمئات مثلى من أطفال الخامسة، كلهم يرتدون المايوهات ومندمجون فى صخب البهجة، إلا أنا، تُهت، مشيت بعيدًا عن أهلى فلم أعد أعرف أين أجدهم، لا لون الشمسية ولا مكانها ولا أى علامة فى البحر ولا أى مبنى خلفها فى الكورنيش، كلما خبطنى كتف أحدهم أو اصطدم بى ذراع بكيت خوفًا وفزعت توهانًا، لا أحد أعار دمعى اهتمامًا، لا شفقة فى الزحام ولا مكان لطفل يبكى وسط ألف يضحكون. هذه لحظة التوهان الكبرى فى حياتى، تُهت كغيرى فى المدن والأفكار والعواطف والتاريخ والشغل، لكن مثل هذه التوهة هى التى تترك بصمتها عليك للأبد رغم أن عائلتى وجدتنى بعدها بساعة واحدة فقط.





24

□ أتدرَّب على إلقاء النشيد فى هذا الفصل المطل على الممر، الأستاذ محمد عكاشة يقود أول فرقة تمثيل فى مدرسة أحمد عرابى الابتدائية، كنت أشارك فى مسرحيتَين، لكنه خصَّنى كذلك بأداء النشيد منفردًا جالسًا على سجادة صلاة بجلباب أبيض، وركّب فى وجهى لحية سوداء صنعها من فَرو أرنب، وربطها على رأسى بأستيك عريض وضع فوقه طاقية بيضاء مخرَّمة، كانت البروفة النهائية وأنا مندمج جدًّا وأردِّد النشيد: ((يا إلهى يا إلهى يا مجيب الدعوات اجعلنى طفلاً مُجدًّا ومؤدّى واجباتى))، حينها عبر الأستاذ إمام فى الممر وشاهدنى من الشباك ثم صاح بجملته التى ترن فى أذنى حتى الآن: ((معقولة طفل إزاى وعنده الدقن دى كلها؟!)).
فاجأتنا الجملة وصدمتنا، إنه التديُّن الشكلى، لقد سقطنا فى النمط، بحيث إن أى دعاء لربنا يستوجب الجلابية والذقن وسجادة الصلاة، حتى لو من عيِّل. الأستاذ إمام يكشفنا حتى الآن.. فى اليوم التالى كنت طفلاً فى الحفل بلا لحية.

25

□ أشفقت عليه وعلى وحدته وخُفت يومها على نفسى من مصيره، كنت أجلس معه فى شقته الواسعة الفارغة إلا من الوحشة، تراب على الأرض والمقاعد، أكداس من القمامة لم يرفعها أحد، شرائط فيديو وأوراق وكتب متناثرة فى كل ركن، سجاجيد متشرّبة ترابًا وغبارًا، كراكيب وإهمال، كان يسعل كثيراً وهو يتكلمَّ، كاتب عظيم يعيش وحيدًا فى شقته هذه بلا زوجة أو أبناء. حكيت لصديقتى ما رأيته معلقًا: من الممكن أن يموت دون أن يعرف أحد بخبر موته، لكنها قتلت رومانسية الحزن فى حكايتى حين قالت: ((ليه مابيجبش شغالة تنضّف له الشقة؟!)). كان سؤالًا فى منتهى الوجاهة نسف كل أوهام الشجن والوحشة، ما علاقة الحزن والوحدة بالوساخة أصلاً؟! نحن نحب أن نعيش فى أفكارنا وتخيّلاتنا حتى نصحو على سؤال واقعى جدًّا مثل هذا، بعد سنوات اكتشفوا موت هذا الكاتب الكبير فى شقته وحيدًا بالصدفة!

ممرض العيادة هو ملخص
كل الأمراض التي لا يستطيع
طبيبه أن يعالجها



26

□ لن أقفز فوق سور المدينة الجامعية كى أدخل إلى غرفتى. ريفى غريب فى تانية كلية فى منتصف ليل القاهرة ولا حلّ إلا أن أفعل ما يفعله الطلبة حين يتأخرون عن مواعيد إغلاق البوابة التى كانت تبدو لنا حصنًا هائلاً. تأخرت لأننى كنت فى حفل الجامعة الأمريكية لإعلان جائزة القصة القصيرة، جلست فى القاعة التى تغص بالجمهور مستهولاً غربتى بينهم، بدأ إعلان النتيجة، فارتجّ قلبى حين أذاعوا اسمى فائزًا بأحسن قصة، صعدت أنفض عنى وحشتى أتسلم الكأس. أخبرتنى المسؤولة عن حفل عشاء بعد توزيع الجوائز، لكننى خفت أن أتأخر أكثر. والآن بتُّ واقفًا أمام البوابة، تصدى لى الحراس، خائفًا مرتبكًا فأشرت إلى الكأس، مكتوبًا عليها جائزة القصة القصيرة، فضحكوا ودخلت رافعًا كأسى فى وجه شوارع المدينة الخالية.

27

□ كنت لا أحب يوم السوق، يبدو صاخبًا جدًّا ومزدحمًا فى مدينة تستقبل الآلاف فوق حمولتها هذا اليوم، فى ما بعد تمدَّدت السوق حتى وصلت إلى شارعنا، حتى كادت تدخل علينا غُرفنا، كان الغداء لهذا اليوم محفوظًا فى أسرتنا على مدى سنوات، بصارة وباذنجان مقلى وبطاطس مهروسة، لا شىء غير هذا الغداء الذى جرَّبنا التمرُّد عليه سنينًا وفشلنا تمامًا فى تغييره، كانت أُمِّى يومها تخرج للتسوُّق وشراء حاجات الأسبوع كله، فتظل عدة ساعات خارج البيت، الأمر الذى يمنعها من الطبخ. بعدما تزوَّجت كنت أتابع زوجتى تعود من الشغل ثم تشعل عيون البوتاجاز وتبدأ فى إعداد الغذاء مرهقةً ومتعبةً، فأخبِّى عنها قصة بطاطس أُمِّى المهروسة يوم السوق. فكل أيام القاهرة سوق!

28

□ أصحو مبكرًا جدًّا، أنزل من شقّة عمّتى بمحرم بك، أمشى وسط الموظفين والعمال والطلبة الذين يعملون فى الصيف فى محطة الرمل ومصانع المدينة، نصل إلى محطة الترام فى الرصافة، أركب الترام لمحطة مصر، ليس زحام الإسكندرية كالقاهرة أبدًا، أنا غريب عن المدينتَين، لكن الإسكندرية تغسل ببحرها القلب، وتترك فيه حزنًا مملحًا، أنزل من الترام لأركب مينى باص يخوض الكورنيش كله، ينزل ركاب ويصعد آخرون، نصل إلى المنتزه، حيث الفندق مقر مهرجان الإسكندرية السينمائى، أصعد السلالم مسرعًا، خشية أن تفوتنى بداية الفيلم، ألتقى زملائى الكبار المقيمين بالفندق يشكون فى صخب من قلّة النوم وهم قادمون من مطعم الإفطار أو حمام السباحة.. تنطفئ أضواء القاعة ويبدأ عرض الفيلم، إنه عرض الحياة المستمر!

29

□ **ممسكًا بيد لا أتذكَّرها، لعلّه خالى أو ابن عمّتى، يعبر بى شارعًا مزدحمًا فى وسط البلد، كنت صغيراً جدًّا تكاد تدوسنى الأقدام. أرفع رأسى فإذا بى أراه يعبر الشارع تجاهنا، أشعر بالمفاجأة، أتجمَّد فى وقفتى محدقًا فيه غير مصدّق كل هذه البهجة التى اجتاحت قلبى، إنه هو. أدرك الفنان يوسف فخر الدين أن نظراتى متعلقة به، فابتسم لى ابتسامة حانية مرحّبة وأومأ برأسه ثم أكمل مشيته، كان أول وجه ممثل ينتقل من الشاشة إلى واقع حياتى، قابلت بعدها فى عملى ومشوارى عشرات النجوم، وصار بعضهم من أعزّ أصدقائى، لكن وحده يوسف فخر الدين الذى ترك بصمة بهجة لا تزول عن قلبى، لا أحد فينا إلا ويمشى فى حاضره ممسكًا طفولته فى يده، يصحبها معه إلى المستقبل.**



30

□ سحبنى الموج، لا أعرف العوم ولا فكَّرت أصلاً أن أعوم، فقط إنه الدخول فى ماء البحر عند الدرجة التى لا تتجاوز فى ارتفاعها ركبتك، كنت أقاوم الدخول أبعد من ذلك رغم اتهام أصاحبى لى بالجُبن، سمح لى شبابى وقتها أن أتفلسف عليهم فى الفارق العميق بين الحذر والخوف الذى لا يدركه إلا الحذرون، لكن شيئًا ما أبعدنى عن حلقة الصحاب، ووجدت الماء عند صدرى فارتبكت وقررت الخروج من البحر فورًا، ساعتها جاءت موجة عالية للغاية ضربت ظهرى فترنّحت وسقطت تحت الماء، وجاءت أخرى أعلى أطاحت بى، دُرت حول نفسى ودخل الماء فى جوفى وطبشت بيدى وأنا أشعر الغرق تائهًا مرتبكًا مذعورًا مُهانًا، لكنّ يدًا امتدت إلىّ فأمسكت بها، فشدّتنى بقوة، فإذا بى أتجاوز هذا المتر الذى يجعلنى أقف فى البحر. لقد أنقذت هذه اليد حياتى. التفتُ إلى صاحبها فإذا به صبى لا يكاد يبلغ العاشرة. رمانى بنظرة سريعة ثم ذهب ليكمل لهوَه، نفضت ذهولى ورعبى عنّى وخرجت من البحر إلى الشط، عشت بعدها أتمنى أن أكون هذه اليد التى تنقذ غيرها ثم تذهب وكأن أحدًا لم يحيا بها.



31

□ وقفت مبهورًا بقدرة جارى فى لعبة الدبور، هذا المثلث الخشبى الذى ينتهى بمسمار بارز يلمس الأرض حين يرميه جارى بهذه الحرفنة مطلقًا الخيط الملفوف عليه فيلف ويدور بسرعة تجعله غير مرئى فيخطف عقولنا وأبصارنا، فى المرة التالية خطف بصرى أنا فقط، فبدلاً من أن يقذفه على الأرض أفلت من يده، فضرب عينى وأحسست ألماً رهيبًا، فانطلقت كأى طفل فى الرابعة فى الصراخ الباكى، لم أشعر إلا بأننى فوق كتف جميلة، جميلة كانت شغالة فى منزلنا (لم نكن نستحى من هذه الكلمة ولم نكن نراها انتقاصًا ولا عيبًا) حملتنى وجرت بى ملهوفة عدة كيلومترات إلى المستشفى، لم يلحق بها أحد حتى من قرر أن يركب عجلة أو يبحث عن سيارة تُقِلُّه.

من تحت ضمادة عينى ما زلت أتذكر ملامح جميلة التى كانت للغرابة فى منتهى الوحاشة، أعرف الآن أن الحياة لم تعد جميلة لأنه لا توجد شغالة فى الستة وأربعين عامًا التالية فى إخلاص وتفانى وانتماء جميلة.

32

□ أنظر إلى ساعتى فأكتشف أننى لا بد أن أقوم حالاً حتى أستطيع اللحاق بالقطار الذاهب إلى مدينتى. أنهى الإجابة عن آخر سؤال فى الامتحان وأسلّم الورقة إلى المراقب وَسط ذهول زملائى المعتاد، حيث أكون أول مَن يسلِّم إجابته كل مرة وقبل نهاية وقت الامتحان بساعة وعشر دقائق، كأننى سندريلا أخرج، كنت أستغرق عشر دقائق فى البحث عن ميكروباص إلى رمسيس، ثم الساعة الباقية للطريق والوصول قبل إقلاع القطار، وربما الحصول على مكان للجلوس كذلك. لماذا كنت حريصًا هكذا على هذا القطار؟ لماذا لم آخذ القطار التالى أو أركب ميكروباص من موقف ((أحمد حلمى)) فى أى وقت؟ لماذا لا أبيت فى المدينة الجامعية كما كنت أبيت ليلة الامتحان؟ تزدحم حياتنا بالأسئلة، لكن أكثرها صعوبة هى أسئلة التفاصيل الصغيرة.. عندما كان القطار ينطلق فى السادسة كان زملائى يقدّمون ورق الإجابة.

غسل الأطباق يعنى قدرتك على تحمل مسؤولية الآثار السيئة للأفعال الجميلة

33

□ كانت ((بوابة مساعد)) على الحدود المصرية- الليبية هى علامة اعتصار قلبى. عندما نقف فى طابور سيارات الأجرة المتوجهة إلى ليبيا، حيث نقضى فترة الدراسة هناك كل عام، حيث كان أبى معارًا للتدريس فى طبرق لأربع سنوات، كان ((السلكاوية)) هم الوحوش بالنسبة إلىّ، كلما تحدث أحدهم عنهم. والسلكاوى هو المصرى الذى يدخل ليبيا بشكل غير شرعى تهريبًا عبر أسلاك الحدود.

كنت أخاف من هؤلاء السلكاوية عندما أسمع عنهم أو أراهم حتى جاء قريبى السلكاوى وعاش معنا، زال تمامًا إحساس الخوف الطفولى، ولكن حلت محله مشاعر الشفقة، وتركت آثارها ندوبًا على قلبى من يومها.

34

□ كان الشاب فى جيلنا يكتب يومياته فى نوتة ويلفُّ ها ويخبّئها أسفل درج الدولاب، وينفجر غضبًا فى وجه أخيه إذا اكتشف وجودها وقرأ صفحاتها، وممكن تدب خناقة بين بنت وأُمّها، لأن الأم دعبست وفتّشت عن يوميات ابنتها وقرأتها من وراها. الآن الأجيال تكتب أكثر أفكارها وأسرارها تعريًا على شاشة الفيس أمام الآلاف وتتكلَّم بأسوأ ألفاظها فى صفحة على النت، يطَّلع عليها اللى يسوى واللى مايسواش، ماتت الخصوصية وراحت مع هنادى فى الوباء. آه، ماذا لو كانت هنادى تملك صفحة على الفيس أيامها، كنا اتسلينا جامد!

35

□ أجلس فى الحضانة صغيراً منكمشًا فى اليوم الأول لى مع أبلة نور، وهذه الوجوه الغريبة عن عائلتى، منذ تركتنى أُمِّى مبتسمة مشجعة ظللت صامتًا عصيًّا على كل محاولات أبلة نور لإخراجى من كهفى. حدقت فى هذه النافذة المفتوحة على الممر المؤدِّى إلى باب الحضانة الرئيسى، منتظرًا عودة أُمِّى، كم انتظرت، لا أعرف، ماذا فعلت حتى عادت، لا أعرف، ما زال ظهورها وراء الشباك يعبر أمامى مطبوعًا حتى اليوم على قلبى وسطح ذاكرتى، بل لعلّه غلاف كتاب عمرى، لم تكن قد ارتدت الحجاب بعد، وجهها الأبيض بملامح شباب هدى سلطان، وشعرها الأسود مصفوفًا كما تبدو نجمات السينما فى أفلام الستينيات، وتعلق حقيبتها على ذراعها، وترتدى تيِّيراً أزرق بنقاط بيضاء، قمت واتجهت إليها وهى تقف أمام الباب، تلقتنى مبتسمة تنحنى وتقبّلنى، تسألنى: ((انبسطت؟)).

وهل ينبسط أحد حين تغيب أُمُّه أبدًا؟ كأننى لم أبرح هذا الكرسى كل هذه السنين!



36

□ جلست فى المكتبة، هنا التاريخ يمر بين الرفوف والمقاعد، لريفى مثلى انتقل من مكتبة المدرسة الثانوية التى تحوَّل جزء منها إلى فصل، ومن مكتبة بيت الثقافة التى كانت غرفة فى شقَّة فى المساكن الشعبية، فإن مكتبة جامعة القاهرة كانت قصرًا للأحلام، صحيح أن موظفيها كانوا مملّين وفاترين جدًّا وأن روادها كانوا يومها على قدر من الجهامة، مما جعلنى أسأل كيف لا يبتهج هؤلاء وهم فى تلك الحضرة الذكية، لا أعرف لماذا طلبت يومها كتابًا فى الشعر الجاهلى لطه حسين، تناولته من الرف وفتحته وقلَّبت صفحاته، فإذا بهلع يتملَّكنى ونار تندلع فى رأسى، كانت الصفحات تمتلئ بكتابات بخط اليد على هوامشها من هؤلاء الذين طالعوا الكتاب فى هذه المكتبة من قبل، كلها خطوط رديئة وشتائم أردأ تتراوح بين ((يا أعمى يا كافر))، إلى ((كلب يحارب الدين، لا تقرؤوا لهذا الزنديق))، كنا وقتها فى منتصف الثمانينيات وكانت مصر تغسل عقول شبابها بلوث السلفية والوهابية، حاولت التماسك وقمت أفتح كتب طه حسين كلها، وكانت الشتائم تقفز بخط يدهم من هوامش الصفحات إلى متن قلبى.. هل لا يزال الجهل يكتب سيرته هناك على هوامش طه حسين حتى الآن؟



طفولة العقل هى التى
تجعلك تكف عن العزف
لو لم تكن العازف الأول

37

□ كنت فى الدوار، حيث عزاء جدتى، شغّلوا ماكينة الكهرباء ونوّرت المنطقة كلها بالأنوار القادمة من الدوار، حيث تَفِد القرية للعزاء، دخلت حجرة الدوار المخصصة لإعداد القهوة والشاى، حيث وشيش البواجير وصفافير البخار، وهذا الرجل البدين يتحرك بمنتهى الخفة والرشاقة فى إدارة العمل. أخذتنى دهشة أوقفتنى منتبهًا ومأخوذًا وأنا أرى مئات الأسماء مكتوبة ومحفورة على جدران الحجرة وتحت كل اسم تاريخٌ باليوم والشهر والسنة.

كانت الجدران المنقوشة قد حوّلت الغرفة إلى معبد فرعونى أمام عينى، سألت الرجل فأجاب بأنه ورث هذه المهنة عن أبيه وورث الجدار عنه أيضًا، فكل ميت يأتى للعمل فى عزائه يكتب اسمَه وتاريخَ وفاته ليسجل موتى القرية، قلت له: ((لماذا؟))، قال: ((عشان نعيش ونفتكر))، ثم ضحك وأضاف أن جده كان يسجل كل مولود فى البلد فى كراسات بخط يده، يحتفظ بها فى بيته، قبل أن يكون هناك شهادات ميلاد رسمية، بل إن الناس كانت تحمل إليه مواليدهم كى يكتب أسماءهم فى كراساته.. كانت قريتى تثبت لى أن الخلود مهنة مصرية.

38

□ الكابينة ضيقة وتضيق أكثر، أمسك بالتليفون الأسود بسلك طويل ملفوف يتدلى من هذا الحاجز الخشبى، أنظر إلى عامل السنترال وهو يشير بيده: اتكلِّم، فأتكلم، لا أسمع إلا وشيشًا ووشًّا، صوت حرارة التليفون رفيع وبعيد وحاد، أشير بيدى من خلف الزجاج علامة على أنْ لا أحد يرد، يمهلنى بيده أنْ أصبر قليلًا، يدير قرصًا لديه ثم ينزع أنبوبًا أحمر من أمام جهاز اللاسلكى أمامه ثم يضعه فى مكان الأنبوب الأزرق، يواصل بيده الإشارة إلىَّ أنْ أتكلم، لا أسمع شيئًا ولا أحدًا، صوت الصمت المطبق فقط، بينما أصوات الناس تأتيني مكتومة من صالة انتظار السنترال ومن الكبائن الأخرى، أفتح باب الكابينة وأنادى عليه، ((مافيش حرارة))، يصرخ كى أسمعه، الخط مقطوع أو كارت المنطقة واقع، يتذمر الآخرون من استغاثتى له، نحاول مرة أخرى، يدق البعض على زجاج الكابينة ويذهب للموظف آخرون، أرفع السماعة فينهمر الفرح فى قلبى.. حيث صوت يأتينى فإذا به الموظف، ((معلش يا أستاذ الوضع صعب، هو إنت عايز تكلمِّها ليه؟)).

39

□ كنا نجلس عن يساره، يبعد عنا عدة مقاعد، بحيث نميل برؤوسنا ونلف بنظراتنا فنراه، تركنا الاهتمام بالندوة والجالسين على المنصة وهذا الزحام الحاشد وتلك الأصوات العالية المختلطة، وكنا لا نزال فى أولى جامعة، صبية تخط شواربهم مع أحلامهم على وجوههم، لكن الغريب أنه كان نجمنا، بوجهه الوسيم وشعره الأصفر وعينيه الخضراوين المتألقتين، إنه يوسف إدريس، يا لهوى على إحساسنا أنا وصديقى وقد جئنا من المدينة الجامعية فى عزبة أبو قتاتة لنقابة المحامين حيث مؤتمر الحريات ووسط هذه الوجوه التى خرجت من صفحات الكتب والمجلات والجرائد لتمشى فى ممرات القاعة!

جلسنا خَجلين تمامًا، مأخوذى الأنفاس حتى رأيناه فاشتعلت القلوب وهَجًا، هل نذهب لنسلم عليه أم سينفر منا؟ هل يظل محلقًا فى خيالنا أم ننزل له على الأرض، وصلنا للفكرة ونفذناها، كتب صديقى بخط يده على ورقة منزوعة من كراسة جملة ووقعها، أعطاها لجارنا الذى سلمها لجاره ففتحها فضحك ثم أعطاها للآخر ففتحها وضحك، عندما وصلت إلى يوسف إدريس كان الكل يحدثه عن هذين العيلين هناك. لوَّح لنا ضاحكًا، لا أذكر الآن.. هل

كتبنا له ((إنك حلمنا)) أم ((نحن نحبك جدًّا؟)).

أصعب لحظات حياتك تلك التى
تواجه فيها كائنات ضالة، تكون
الكلاب الضالة هى أضألها شأنًا



40

□ هل كان شتاءً؟ شيء ما يذكرنى أنه كان يومًا باردًا، كان أقل أيامنا كلامًا فى البيت، صمت ثقيل وغموض أثقل. خرجت السيدة من غرفة النوم تحمل لفة مكموشة من القماش داخل كيس بلاستيك شفاف أعطته لأبى، مشيت خلفه، ونزل السلم إلى الجنينة مع ابن عمتى. أمسكا الفأس الصغيرة، وبدأ ابن عمتى يعمق حفرة تحت شجرة الليمون، بينما الدموع تخضب خدى أبى. وضعا اللفة فى الحفرة وردماها بدموعهما.

أجمل رائحة فى الجنينة كانت رائحة زهر الليمون، أكان مرويًّا بالبراءة؟! تطلب منى الأمر سنينا كى أعرف أن أمى مرضت جدًّا، وهى حامل فى الشهر الثالث، وأحسَّت بانقباضات وتقلصات انتهت بالجنين فى الجنينة. كان أكثر ما يؤرقنى أننا لم نعرف هل كان الجنين أخى أم أختى.

أن تدفن أحدًا فى قبره أسهل كثيراً من أن تدفن سؤالاً فى صدرك.

41

□ **جلس بجوارنا دون أن يستأذن، أخرج العود من جرابه، كان معلم المقهى وصبيانه يعرفونه ولا يطردونه إلا لو اشتكى منه الزبائن، قطع حوارنا أنا وصاحبى وسألنا: ((تحبّوا تسمعوا إيه؟)). تليفزيون القهوة شغّال داخلها وعلى الرصيف تأتينا أيضًا أصوات غناء من كاسيت المعلم، أما زحام السيارات أمام المقهى فلا يمنحك فاصلًا للإعلانات عن نفسك أبدًا، لكنه صمَّم على السؤال رغم تجاهلنا للرد، كان وجهه على عتبة الشيخوخة وخلا تمامًا من أى إشارة إلى الرقّة، كان يعمل ولا يغنّى، كان يتسوّل بمدّ العود لا بمدّ اليد، لو كان مريضًا نفسيًّا لتعاطفت معه أكثر، فالفن يمُرْضِ فعلًا والمرض يَفِنّ أحيانًا.**

استمر صديقى فى حديثه لى وهو يضع مالًا فى يد الرجل حتى يرحل، فلم يُعره اهتمامًا وبدأ يعزف ويغنّى ((لأ مش أنا اللى أبكى ولا أنا اللى أَشكى لو جار علىّ هواك))، فاجأنا تمامًا، كان صوته رغم خشونته جميلًا وحساسًا، ركّزنا فى الشيشة وأنصتنا إليه فى منتهى السعادة رغم الصخب.

42

□ كنا فى قسم الرعاية المركزة، مجموعة غرف متجاورة ومتقابلة، أبوابها مفتوحة والزجاج يكشف السرير والمريض، كنت خارجًا من زيارة أُمّى عندما نادتْنى مريضة من داخل غرفتها، وهى تمد يدها مرتعشة نحوى، دخلت لها وقالت بريق جاف: ((والنبى يا ابنى عطشانة عايزة شوية ميّة))، أخذنى الغضب بالممرضات والأطباء ورُحت فورًا إلى ثلاجة قريبة، وعُدت لها بزجاجة مياه، فتحت غطاءها، تلقفتها السيدة العطشى وسط أسلاكها المربوطة وأنبوب تنفسها الملتصق بأنفها، مضيت وهى تدعو لى.

وفى اليوم التالى فى غرفة أُمّى سمعت عن المريضة التى كادت تموت أمس بعدما شربت ماءً رغم خطورته عليها وأنقذوها فى آخر لحظة، كاد قلبى ينخلع فزعًا..

لا ندرك أحيانًا أننا نقتل أنفسنا حين نلبّى رغبتنا.



43

□ أجهز ساقى للانطلاق وأغرس قدمى بالكاوتش الأبيض فى التراب ثم أجرى مندفعًا صارخًا نحو عمود الكهرباء وأنا أصرخ: ((أنا فرافيرو))، كنت فى الرابعة من عمرى، وفعلتها بمنتهى الحماس والثقة، تخيَّلت نفسى فرافيرو، ذلك البطل الخارق فى الكارتون الشهير الذى اتهبلت به مصر فى أواخر الستينيات، كنت أسعد حظًّا من أطفال جيلى الذين طار بعضهم من البلكونة مقلدًا فرافيرو، أُصبت فقط فى رأسى بعد اصطدامى الحاد بالعمود وتورَّمت جبهتى، وظللت أيامًا فى السرير موضع سخرية العائلة كلها، كلما صادفت عمودًا آخر يصدم رأسى فى السنوات التالية أضحك فى سرّى وأنا ألوم نفسى: إلى متى تتصوَّر نفسك فرافيرو؟

44

□ أمامى ورقة أسئلة الامتحان أفردها غير مصدق، أصعد بها إلى عينى، أهبط إليها بنظرى، ينخلع قلبى ويرتج كيانى كله بالفزع، هذه أسئلة مادة أخرى غير التى ذاكرتها، يا نهار أسود، لقد أضعت السنة هدرًا، أذاكر مادة وأستعد لها ثم أفاجأ بأنها مادة أخرى لم أقرأ فيها حرفًا، كيف أخطأت ونسيت؟ لماذا لم ينبهنى أحد من زملائى؟ أشعر بالحزن والاكتئاب العميق، ومن فرط ألمى أصحو من النوم، أنتبه فيغمرنى رضا هائل.

إننى كنت أحلم، بل إننى تخرجت فى الجامعة منذ زمن، بل وأنا أعمل وقد شاب شعرى. المشكلة أن هذا الحلم يأتينى كثيراً، مرة كأنه امتحان ثانوية، ومرة كأنه امتحان جامعة، وحين أصحو أسأل نفسى: ألن تنتهى امتحانات هذه الحياة أبدًا؟

45

□ كان يقود سيارته فى الطريق الزراعى وبجانبه زوجته وفى المقعد الخلفى طفلاه، ما زلت أذكر وجهه الأسمر الهادئ دومًا منذ كان يذاكر فى البيت مع خالى أيام الثانوية، الآن هو طبيب شهير فى مدينتنا، يسافر فى مشوار مع عائلته إلى القاهرة.

على الناحية الأخرى من الطريق اندفعت سيارة وراء أخرى فرملت فحاول السائق أن يتفاداها، فصعد إلى جانب الطريق فاصطدم بكشك واتطربقت العربية، بينما انحرفت السيارة الأخرى بعدما صدمت عربة كارو خرجت فجأة إلى الطريق، بسرعة اتخذ طبيبنا قراره وهدّأ سرعته ومال ناحية اليمين ليوقف السيارة، سألته زوجته: حتعمل إيه؟ قال لها: حساعد فى علاج أى مصابين على ما تيجى الإسعاف، فتح الباب ونزل من السيارة، عبر الطريق إلى الناحية الأخرى، فجأة اندفعت سيارة مسرعة قادمة ناحيته وأطاحت به، مات.

46

□ هو أول مَن عرفته فى الكلية حين رُحنا للكشف الطبى للمدينة الجامعية، شاب من الشرقية كان منبهرًا بكل شىء يراه، ولكنه أكثر انبهارًا بنفسه، صدمه كثيراً أن أحدًا لم ينبهر به، سافر فى إجازة صيف سنة أولى إلى ألمانيا، لم يعد من هناك. تزوج بسيدة ألمانية واضح أنها انبهرت به كما تصوَّر، وعاش هناك، قابلته بعدها بسنوات صدفة فى قهوة فى برلين، كان باردًا ومطليًّا بألمانيته، طلق زوجته وتزوج بأخرى واشتغل فى التجارة، سألنى عن زميل لنا فى المدينة الجامعية، كان يغار منه ويعتبره منافسه الأساسى، كانت نبرته متعالية كأنه كسب صاحبنا، أجبته: كويس الحمد لله، صار أستاذًا فى الكلية، كنت أكذب، فقد أُصيب صاحبنا بالجنون فى سنة تانية وهجر الجامعة، لعله مجذوب قريته الآن.

47

□ **كنت فى استاد القاهرة وكانت المرة الأولى، اصطحبنى خالى، ونحن الريفيين القادمين من قويسنا لمشاهدة مباراة الزمالك من الملعب، كان خالى يقوم صائحًا صارخًا والجمهور من حوله مستغرق تمامًا فى التشجيع، بينما كنت أشد خالى ليجلس وأسأله عما يحدث. كانت المرة الأولى التى أعرف فيها أن نظرى ضعيف، لم أكن أرى اللاعبين إلا أشباحًا بيضاء تجرى على مساحة خضراء، وطبعًا لم أكن أرى الكرة أصلاً..**

ليس معنى أن تكون فى قلب الحدث أنك ترى.

48

□ خبط على كتفى فالتفتُّ إليه وهتفت فرحًا، لم ألتق به منذ عشر سنوات، كبر وتخن، تذكرت يوم اتصلوا بى: ((تعالَ حالا المستشفى، أحمد جاله انفجار فى المخ)). كان فنانًا عدميًّا ورقيقًا ومحلقًا طول الوقت، هذا الشارى لدماغه جاءه انفجار فى المخ، وصلت إلى المستشفى مذعورًا، تُهت فى الممرات ثم وجدت نفسى واقفًا خلف رجل وزوجته، عرفت فيما بعد أنهما والدا أحمد، يستمعان إلى جراح كبير قصير يستند إلى الحائط ويلعب فى نظارته، ويقول لهما بمنتهى الهدوء البارد: ((الحالة فى منتهى الخطورة والعملية ح تبقى أخطر. قدامكم ربع ساعة تقرروا إنتوا موافقين على العملية أوح يموت بعد نُص ساعة)).

لم أنس فى حياتى هذه اللحظة حتى عندما كان أحمد يبتسم لى الآن، وهو يقدم لى صورة ابنته.

49

□ سمعنا الصراخ فانطلق كل واحد فينا قفزًا على السلم، ما زلت أذكر ألسنة النار تشتعل فى الحطب، منزل جارنا من دور واحد يمتلئ سطحه بحطب القطن، اشتعلت فيه النار فلوّنت سماء شارعنا باللهب.

أمام البيت تجمع العشرات فالمئات، كل منهم يحمل جردل ماء ويرميه بفوضوية مخلصة، بينما آخرون قد مدوا خراطيم من حنفيات بيوتهم لقذف الماء على السطح، بالإضافة لمجموعة من أهل الشارع صعدوا إلى السطح لاحتواء النار من فوق، وبدؤوا يرمون أجزاء الحطب المشتعلة على الأرض.

وكنت وسط أطفال الحى كله نتابع، لا خوف ولا فزع، بل ضحك وإعجاب، وكل واحد فينا يلفت انتباه الآخر إلى مشهد أو حدث، حين أطفؤوا الحريق عرفت أن الأطفال لا يفهمون معنى اشتعال الحرائق. العيال يستمدون من عدم مسؤوليتهم شجاعة اللهو حين الخطر.

الفرق بين جنيات
الحواديت وساحراتها
يعرفه الأطفال
والحالمون والجبناء


ANGRY
ANGRY

50

□ كان وجهه نكدًا طول الوقت وملامحه منزعجة وضيق الصدر لا يطيق أن يتّسع، كنا فى المقرأة التابعة لجامع المساعى، وكان الشيخ أحمد كفيفًا محفّظ القرآن للأطفال، أرسلنى أبى للحفظ على يديه، كانت القاعة مزدحمة وصاخبة والشيخ أحمد يحفّظنا جماعة وينادى بعضنا فرادى، ليسمع منّا ويحفّظنا وهو جالس على دكّة تحت النافذة، لم أرَه مبتسمًا أبدًا، ولم يهمس أو يهدأ صوته يومًا، حفظنا جزأى ((قد سمع)) و ((تبارك)) ، وكان يكره جدًّا أن نسأله عن معنى الكلمات، ويشخط فينا: ((إنتوا تحفظوا بس، ولما تكبروا تفهموا يا حمير)). انقطعت عن الشيخ أحمد وكلما التقيت بعدها زملائى وقد تفرَّقت بنا السُّبل، أسأل نفسى: هل يا تُرى فهموا وقد كبروا خلاص؟ المشكلة أن الحمير حتى لو كبرت لا تفهم، هى فقط تحمل أسفارًا، حتى الآن لم أحصل على إجابة عن: ما مصلحة الشيخ أحمد أن يحفظ الحمير كلام الله؟

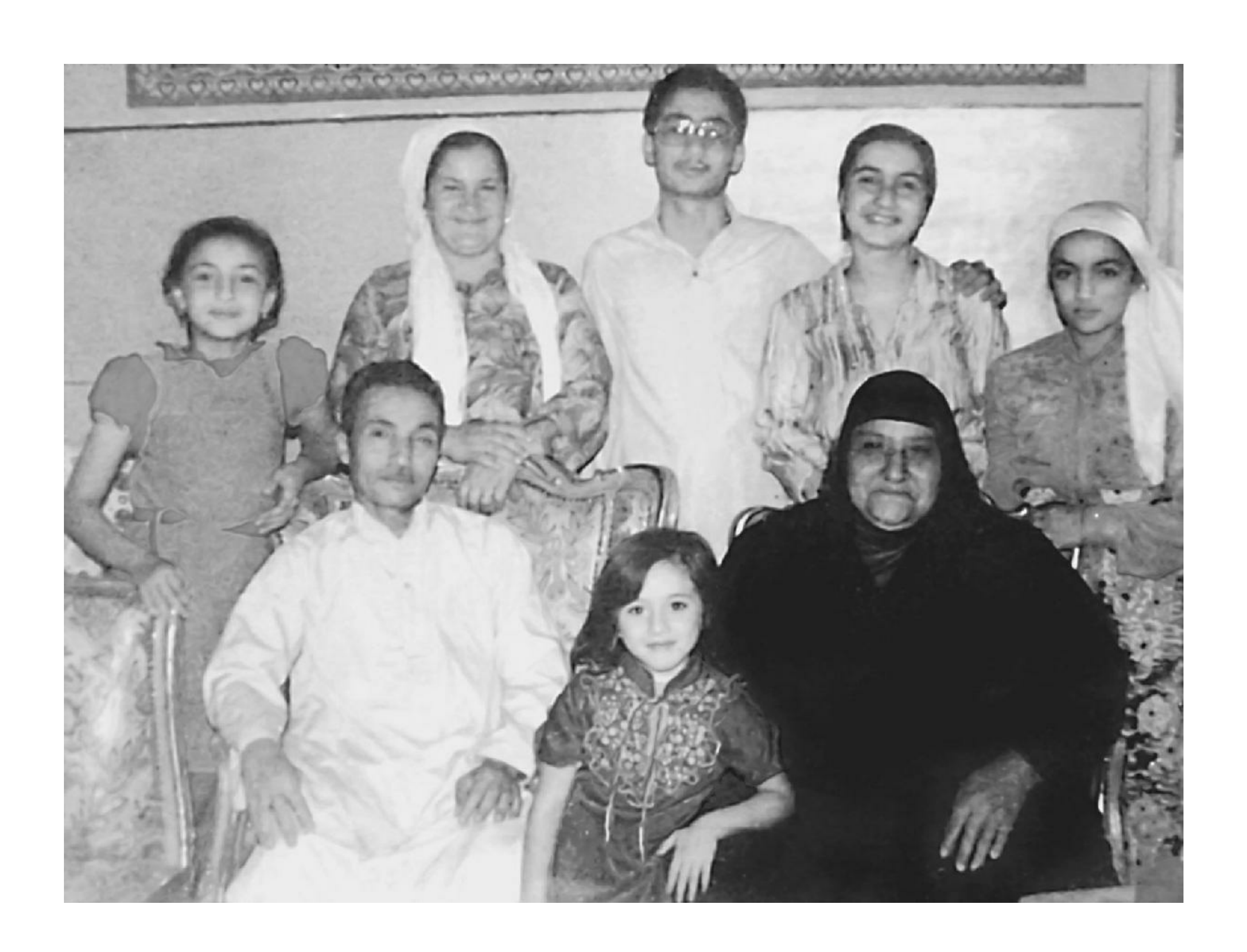
51

□ كانت أمى تطوى جزءًا من سجادة الصلاة بعد أن تنهى صلاتها، وتظل جالسة تدعو لكل واحد من أبنائها بالاسم، كان صوتها يرتفع أكثر حين تذكر اسمى كأنها تؤكد على ربنا اهتمامها بى، من اليوم التالى لوفاتها بدأ أبى مع كل صلاة يصلى لها، يصلى الفجر ثم يبدأ ليصلى الفجر ثانية لأمى، ينتهى من صلاة الظهر (وهو إمام الصلاة فى الجامع)، ثم ينتحى ليصلى الظهر لأمى، يصلى العصر عصرين واحدة له والثانية لأمى، يُعَجِّل بعد صلاته المغرب بصلاة المغرب ثانية لأمى، وفى العشاء صلاة له والأخرى لأمى، ظل هكذا يوميًّا فى الصلوات الخمس لسبعة عشر عامًا من يوم ماتت أمى حتى ظهر اليوم الذى دخل فيه العناية المركزة فرحل عنى، لا حيلة لى الآن يا أبى! فأنا ضعيف لا أقدر على أن أصلى غير صلاتى فأعتذر لك ولأمى.

52

□ كان يوم الأحلام فى العائلة كلها، حيث نجتمع حول والدى وهو يطوى الجريدة على هذه الصفحة المخصصة لنشر أرقام شهادات الاستثمار الفائزة فى السحب الشهرى. مصر كلها كانت معلقة أحلامها فى هذه الشهادات التى كانت هوس السبعينيات والثمانينيات، كنا قد اشترينا عددًا من الشهادات وجاءتنا أخرى كهدايا تفوّق فى الامتحانات وأعياد الميلاد. وصارت جلستنا تنافسًا على من ستفوز شهادته وماذا سنفعل بها. لا أتذكر إطلاقًا أن من بين أحلامنا كانت سيارة مثلاً ولا رحلة للخارج ولا حتى للداخل.

اضطر أبى إلى تسوية معاشه كناظر مدرسة والسفر للعمل فى ليبيا كى يكوِّن شيئًا لأبنائه، فصار حلمنا عندما نقرأ أرقام الشهادات الفائزة أن نفوز كى يعود أبى.



53

□ صحوت من النوم فزعًا، صراخ وعويل، كنت نائمًا على سرير والديّ في غرفتهما ليلتها، لعلى بكيت فى فراشى فجلبونى لسريرهما، كانت شرفة البلكونة مفتوحة وأمى تقف فى هذا الليل الغريب تنتحب فى الشرفة، هل تعلن أمى حزنها للجيران والعابرين فى الشارع؟ قمت مرتبكًا حائرًا حيرة طفل يقتل أمانه بكاء أمه، وقفت بجوارها أشد الروب الذى ارتدته، صعدت فوق كرسى فى البلكونة وأنا أحاول لفت انتباهها، رأيت زحامًا فى الشارع وصراخًا جماعيًّا وجريًا فى كل الجوانب، بكيت خوفًا فأدركت أمى لوعى فاحتضنتنى: ((ماتزعلش يا حبيبى))، ((فيه إيه يا ماما؟))، قالت لى: ((عبد الناصر مات))، ثم صاحت على خالى: ((لقيتوه))، سألتها: ((لقوا عبد الناصر))، ردت: ((لا ده حصان عمك وصال هرب))، كنت طفلًا لم أصل للخامسة من عمرى فلم أفهم أكان كل هذا الحزن على جمال عبد الناصر أم على حصان عم وصال.

54

□ وصلت للشاطئ فى ساعة مبكرة جدًّا، لم أنم أصلًا، فقلت لأتمشَّى على البلاج، كنا فى ميامى فى أوائل الثمانينيات، حيث شواطئ الإسكندرية لم تكن قد هجرتها رائحة الأفلام الأبيض والأسود بعد، كانت مجموعة من البنات يسبحن فى هذه الساعة هربًا من زحام عيون الظهيرة، كان صخبهن إعلانًا عن بهجة البراءة، فجأة تحوَّل إلى صراخ رهيب، واحدة منهن تغرق، جذب العويل رجالًا من الكورنيش ومن الشاليهات اندفعوا لإنقاذ الغرقانة، جلبوها إلى الشاطئ وزميلاتها يبكين وينتحبن ويصرخن ويرتعشن، ماتت، غرقت، كان المنقذون على درجة من الإحباط حيث لا أثر للحياة رغم محاولاتهم، إلا أننى لمحت كف الغرقانة تتحرَّك ببطء ورعشة نحو طرف المايوه الذى أحسَّته كشف ما لا يصح أن يكشفه من جسمها، فجذبت المايوه ودارت عرى مؤخرتها، ابتسمت وأنا أخبر زميلاتها بثقة كاملة: إنها لم تمت.

55

□ كان أبى يطلب منا أن نأتى له بالكرافتة الخضراء، فتجرى أختى لتفتح الدولاب وتحضرها له سريعًا، يمسكها بيده، ويهم أن يربطها، ثم ينزعج ويمسك بالكرافتة، يعيدها ضجرًا لأختى: ((أنا قلت الكرافتة الخضراء)). تندهش أختى وترد: ((طيب ما أنا جبت الخضراء يا بابا!)). يلومها مبتسمًا وساخرًا: ((يا سلام يا ناصحة بقى دى الخضراء برضه!)). نتدخل فى الحوار ونسأل: ((طيب هى لونها إيه يا بابا؟))، فيرد علينا بعيونه العاتبة وتهكمه الحنون: ((حمرا يا ولاد)). نكتم ضحكنا، بينما نسمع أمى قادمة من المطبخ، وهى تضحك فيبادلها والدى بضحكة متقطعة، ينتظر الجواب العادل ينصفه من لماضة العيال: ((طيب قولى لى إنتى يا حاجة لونها إيه؟)). تبتسم أمى: ((اللون اللى إنت شايفه يا حاج)).

عاش أبى عمره كله يرفض أن يعترف أنه يعانى من عمى الألوان، علمنى كبرياؤه العنود عدم الاستسلام لعمى الألوان، وأنه ليس مهمًّا ما الحقيقة، لكن الأهم هو كيف تراها.



56

□ **كلما كانت أمهات جيلنا تضيِّق الخناق على أحدنا وتصرخ فيه كى يذاكر ويشوف دروسه ويبطَّل لعب، يطلق وعده لها فورًا بأنه سيبدأ المذاكرة من يوم السبت. إنه اليوم الذى نعول عليه دائمًا فى البدايات، ولكننا فى الغالب لا نبدأ فيه شيئًا. السبت أفضل شماعات دولاب حياتنا، فقط هو مبرر للتأجيل، بل الآن لم نعد نعرف متى يبدأ الأسبوع بالضبط.**

57

□ شباك تذاكر الدرجة التالتة فى مكان بعيد عن مدخل السينما الرئيسى، حيث شباك تذاكر الصالة والبلكون، كانت إدارة السينما تفصل الجمهورَين عن بعضهما من لحظة قطع التذاكر حتى الخروج من السينما، مدخل السينما يحمل الصور الفوتوغرافية للفيلم ونجومه ونجماته، والأفيشات المرسومة للعرض القادم وقريبًا، وبعيدًا فى مكان منزو خلفى تُباع تذاكر الترسو، ما زلت أذكر الدكان الضيق بجوار شباكٍ درجة تالتة، يكاد يملأ مساحته رجل يجلس على ماكينة ذات سير جلدى يسن السكاكين والسواطير، كان يغلق الدكان قبيل بدء فتح شباك التذاكر، كنا نراه وهو يلمّ حاجاته ويضع القفل على بابه ويرحل بخطوات وئيدة ونحن نقف مبكرين لنملأ الرصيف والشارع، قبل أن يرفع بائع التذاكر تلك النافذة الخشبية المتهالكة ويظهر بوجهه النكد، ليحصل من كل واحد فينا على تلاتة صاغ ونصف ثمن تذكرة الترسو، يغلق بائع السكاكين الدكان ليبدأ بائع الأحلام شغله.



58

أصحو من النوم على زقزقات العصافير تملأ الغرفة المطلة على الجنينة، زقزقة عصفور واحد تصنع بهجة، زقزقة عشرات العصافير تصنع صداعًا رهيبًا. الذى يمتدح شقشقة عصافير الصباح لا يمكن أن تكون قد شقشقت على شباك غرفة نومه أبدًا، كنتُ أتسلل بهدوء حتى لا ينتبهوا لى، أنزل إلى درجات الجنينة، وسط صخب العصافير الرهيب أجهل هل هذا غناء جماعى لهم، لكن لماذا يبدو فوضويًّا تمامًا، ربما يكون شجارهم الصباحى.. أقفز فجأة مُصفّقًا بيدى، تنتفض العصافير فوق ذوائب شجر البرتقال، وأغصان الجوافة تطير هاربة، ألبد تحت جذع الشجرة.

حين تعود العصافير هادئة تتكاثر الزقزقات أعلى جذوع الشجر.

أهزُّ الجذع والغصن والشجرة.. تفرُّ العصافير هاربة، ولا تبقى عصفورة، فأدرك أن العصافير لا تعشق الطيران.. حتى العصافير تريد أن تطمئن فوق شجرها.

59

□ كنت أشاهد فيلم ((عودة الابن الضال)) فى سينما كريم، حيث أسبوع أفلام يوسف شاهين، ثم أذهب إلى محل الفول والطعمية حيث أفطر، ثم أعود لأشاهد نفس الفيلم فى حفلة الواحدة وأخرج منه لأتناول غدائى فى محل الكشرى وأصلِّى الظهر إلى جانب بعض العاملين فى القاعة الخلفية للمطعم، ثم أعود لأشاهد الفيلم فى حفلة الثالثة والنصف، بعدها أذهب للصلاة فى زاوية جامع أمام سينما كايرو لأصلِّى العصر، وأنتظر صلاة المغرب، أصليهما ثم أذهب إلى السينما لأشاهد ((عودة الابن الضال)) فى حفلة السادسة والنصف، ثم أمشى إلى محطة رمسيس، حيث موقف الميكروباص.

أدخل المدينة الجامعية، أدخل مبنى ((اتنين ألف)). صليت العشاء فى مسجد الدور الرابع، ثم اجتمع حولى أصحابى يسألوننى عن غيابى طول اليوم، اجتمعنا فى غرفتى وأخذت أحكى لهم عن الفيلم، نهرنى أحدهم: ((بتشوف أفلام طول اليوم وجاى تصلّى معانا؟!)). تجاهلته وأكملت كلامى عن الفيلم!



60

□ ذهبتُ أزور أمى فى العناية المركزة بقصر العينى، وجدتها نائمة (كانت ولا تزال عندى أجمل امرأة فى الوجود)، خفتُ أن أوقظها وقد أعياها القلق والأرق ووهن الوحدة ووحشة المستشفيات، وخفتُ أن تصحو فتظن أنّى لم أحضر إليها فترف منها دمعة، ففتحتُ أصابع كفها المقبوضة وتركت فيها قلمى، ومضيتُ فى الصباح، قالت لى مبتسمة: ((عرفت إنك جيت امبارح بالليل!)).

61

□ لم يكن بينى وبينه إلا متر أو أكثر قليلًا، تمساح يخرج من البحيرة فى تلك الغابة المفتوحة فى جنوب إفريقيا، يقودنا سائق وحارس فى سيارة جيب مكشوفة، نزلنا عند البحيرة فخرج التمساح هائلاً من جوف الماء، ليس مثل هذا الذى كنت أراه فى جنينة الحيوانات ولن يكون، الحيوانات فى غابتها غيرها أبدًا داخل أقفاص محبوسة أو جناين للفُرجة، الحرية تمنحها حقيقتها، قوة ووحشية وراحة، ركبنا السيارة نستعيد احتماءنا من الطبيعة بالآلات، كان موكب الأسود يمشى حين اخترقناه بهدوء، كانوا ملوكًا للغابة فعلًا، ضخامة وفخامة وهيبة وسطوة، ألقت خطواتهم الوئيدة الثقيلة اللامبالية فى قلوبنا رعبًا، كان صديقى أكثرنا رعبًا حين سأل الحارس عن نوع هذا الطائر الذى يطير بين الشجر الرابض فى طريقنا، ضحك الحارس، حيث أدرك أنه عندما تخشى الأسود على الأرض انظر إلى الطير فى السماء.

62

□ ضجَّت أُمّى منه، دخلتُ عليها غرفة العناية المركزة فوجدتها زهقانة ومنزعجة، وأشارت إلى يمينها، فتجاوزت الستارة الفاصلة ونظرت فوجدت مريضًا مبتسمًا أومأ لى، عُدت إلى أُمّى التى أخبرتنى ((أنه بيعمل دوشة ومابيبطلش كلام ويقعد يحكى للدكاترة والممرضات نكتًا ويضحكون))، سألتها: ((ولماذا لا تضحكين على نكته؟)). نظرت إلىّ حزينة تلومنى، وكأن من أين يأتى ضحكها وحالتها الصحية هكذا، فأجبت على نظرتها: ((لكن الراجل ده مريض وفى العناية زيّك تمامًا، ومع ذلك يضحك ومتفائل)). لم تعجبها لماضتى، عندما خرجت من عندها رأيت المريض يمسك عدّة كور صغيرة ملوّنة ويرميها فى الهواء، ثم يلتقطها واحدة بعد أخرى باحتراف، سألته: ((بتشتغل إيه؟))، أجاب: ((حاوى فى السيرك))، ضحكت وقلت لأُمّى: ((ده بيشتغل حاوى يا ماما))، ساعتها ضحكت، كلنا ضعاف أمام الحواة!

63

□ كان الطريق رمليًّا ليس كما هو الآن، فقد سفلتوه لكن المطبات والحفر والنتوءات زادته بؤسًا، هنا فى قريتنا كل الناس تتكلم بصوت عال، لا يمكن للغريب أن يمُيز بين الحوار والشجار، اقتربت من ًبيت خالى وجنينته الصغيرة على أطراف القرية (صار مخنوقًا بالبيوت حتى إننى لا أتعرف على مكانه عندما أمر عليه) أكثر ما كنت أراه فى هذه الجنينة هو الضفادع، تتقافز بجوار الترعة، وتضل طريقها للجنينة، كان خالى يجلس بين رجلين يصيحان، الأول هو صاحب البيت المجاور والذى بناه حديثًا والآخر النقاش الذى قام بطلاء البيت، كان النقاش مصممًا على ما فعله والجار يطالبه بإزالته، فيرفض النقاش، ويُقسم على أنه سيفسد نقاشة البيت كلها لو لجأ الجار إلى غريب ليطمس اسمه، كان النقاش فرعونيًّا تمامًا حين كتب على واجهة البيت، بياض وتلوين فلان الفلانى، كلما عبرت بعدها هذا الطريق كنت أقرأ اسم النقاش الذى اختفى مع مرور السنين فوق الجدار وفوقنا.

64

□ وقفت فى الصف خلف الإمام، ورفعت كفى، وبدأت الصلاة، كنت أردد جملة حفظتها مؤخرًا حين ينطق الإمام سمع الله لمن حمده، فأقول: ((حمدًا يليق بجلال قدره وعظيم سلطانه))، تلعثمت رغم تركيزى الشديد فقد رأيت الشاب الذى يصلى بجوارى الملتحى لحية كثيفة تصل إلى صدره، يتجه بزاوية وجهه لى، ويُمعن النظر فى وجهى، أصابنى الرعب حيث بدأ المصلون السجود، بينما تجمدت أنا من نظرته، وهو يسجد ملتفتًا برأسه ناحيتى، ننهى الصلاة وأجرى خارجًا، وأعود للبيت، وأحكى لخالى فينطلق فى الضحك ويخبرنى أنه محمود ابن رابحة الحرامية، جارتنا فى آخر الشارع، وأشهر لصة فى المدينة، وهى التى تمنع أى حرامى من الاقتراب من الشارع أو سكانه، ابنها شاب مهذّب، لكنه عند الجميع محمود ابن رابحة الحرامية، تدين والتحى، وانضم للجماعة، لكن حيرته بين تدينه وبيئته جننته، نصحنى خالى: ((صَلِّ فى جامع تانى)).

65

□ كانت الوجوه كلها تنظر نحوى والزحام يملأ الطرقات بعدما تكدَّس الحضور على الكراسى، تدرَّبت على إلقاء القصيدة قبل الحفل بيومَين، كانت مهمّتى هى قيادة فريق المدرسة فى حفل المشاركة الثقافية الذى يضم جميع مدارس المحافظة، مهمتى أنا كانت إلقاء القصيدة التى اخترتها بنفسى وتدرَّبت عليها مع مدرسى المسؤول الذى كان يضع فوق كاهلى مهمة الفوز، كنت بارعًا فى الحفل فى تقديم الفقرات والتعليق عليها، وبتنا جميعًا واثقين من الحصول على المركز الأول، حين بدأت إلقاء القصيدة التى صفَّق للأبيات الأولى فيها الجميع منبهرًا، ثم امتلكت زمام القصيدة حتى اجتاحت القاعة حماسة مدهشة وصيحات استحسان بلا توقف، وبينما أتعالى بثقتى المشبعة بالطفولية، إذا بصوتى ينحبس ثم تنطلق كحة غليظة من جوفى تزداد فتقطع أوصال القصيدة، أحاول أن أكمل فتتضخَّم الكحّة وتندفع، وينطلق الجميع فى الضحك، لا أحد يرحم الفائز حين ينهزم.

66

□ كانت أضواؤه خافتة والستائر الثقيلة على النوافذ، كنت أول مرة أدخل مثل هذه المطاعم فى وسط المدينة، أمضى حياتى فيها تقريبًا لكن بين محلات الفول والطعمية والكشرى وعربات الفول، وحين تطورت علاقتى بوسط البلد دخلت المطعم المفضل لإسماعيل ياسين، حيث الأكل بطعم مطبخ أمى، والموائد مفروشة بالبياضات والجرسونات قادمون من عصر الأبيض والأسود، ناقمين تمامًا على زبائن هذا الزمن. لكن ما صحبتنى إليه صديقتى كان مطعمًا أوروبيًّا استوحشته جدًّا وتعاملت بمنتهى الثبات خشية أن تتأكد من أنه لا أمل فى ريفيتى، تقدم لنا الجرسون بقائمة الطعام، فتحتها، كانت كابوسًا يهدد علاقتى بصديقتى، فكلها باللغتين الإنجليزية والفرنسية، لا أفهم منهما شيئًا.

قرر الجرسون أن يقتلنى بسرد أنواع الأطعمة شفويا باللغتين، ابتسمت وقلت لها: ((اطلبى لى أنت)). خمسة وعشرون عامًا مرت، صار كل الجرسونات فى المطعم أصدقائى وأول ما أدخل يقولون لى: ((سيبك من الأكل الوهمى ده وح نعملّك فتة))، لا أنا ولا هم نتذكر الآن صديقتى!

67

□ قلق تحوّل إلى ذهول صار فزعًا عندما تأكدت أنه ليس خطّى، ما مشاعر رجل يقف أمام المرآة فيرى لنفسه وجهًا آخر غير وجهه، هى فكرة مستحيلة إلا لو أصيب بعمى الوجوه، وعلى حد علمى لم يصب بها أحد إلا فى ثلاثة أفلام سينمائية فقط، قابلت المستحيل شخصيًّا حين فقدت خطى، أكتب الكلمات عشرات المرات فى مئات الصفحات، فتخرج بخط ليس لى إطلاقًا، لا هى طريقة كتابة يائى ونونى ورائى، ولا هذه حائى ولا هائى أبدًا، يبدو فى كل صفحة أكتبها خطا غريبا جدًّا عنى! كيف تكتبه أصابعى؟ كيف يخطُّه قلمى؟

أحسست أننى فاتن حمامة فى فيلم ((الليلة الأخيرة)) تؤمن أنها نادية، بينما يقنعها كل من حولها أنها فوزية، هذا ليس خطى وكل الناس تقول إننى أنا الذى كتبته.

فيما بعد عرفت أنه أثر جانبى لدواء لعلاج آلام العظام، توقفت عن الدواء من يومها. لكن خطّى ظل خط فوزية.

68

□ كنا فى مكتبى، حيث حضر على غير اتفاق صديقان طبيبان للأمراض النفسية والعصبية، ثم امتلأ المكتب بزوار من الزملاء والضيوف، بعد مناقشات وحوارات كثيرة ران صمتٌ علينا وعشنا هدوءًا غريبًا، حتى دخلت هى كالعاصفة، صديقتى صاخبة بالبهجة والصوت العالى تداخلت فى الحوارات واشتبكت فى النقاشات. روت حكايات وتحدَّثت عن مفارقات وأشارت إلى أغان وحلَّلت مواقف واعترفت بمشاعر عداء لشخصيات، وأعلنت عن غرامها بنجم سينمائى وعشقها لكاتب روائى، بثَّت فى المكان فرحًا وصخبًا، وأنعشت أرواح الصامتين فاندمجوا، دفقة الضحك والمرح غمرتنا، ثم فجأة استأذنت رغم إلحاح الجميع عليها بالبقاء قليلاً، غادرت فنظر إلىَّ صديقى الطبيب بابتسامة حانية، وقال لى: ((على فكرة صديقتك تعانى من الهوس الاكتئابى))، استغربت ونظرت إلى صديقى الطبيب الآخر الذى أومأ موافقًا على التشخيص.. أكل هذه البهجة تخفى اكتئابًا؟! على الأقل تقاوم الكآبة بالمرح الناشط، أدام الله عليها الهوس.



69

□ أول رَنَّة عُود انفجر معها دمعى، ثم بدأت تنهال دموعى كمَن سقط سده العالى، فأغرق روحه حزنًا، كان صوت مارسيل خليفة يغنى فى المسرح، ((أحِنُّ إلى خبز أمى وقهوة أمى ولمسة أمى))، قصيدة محمود درويش التى تشوى عظام قلبى ألماً، لم أستطع المقاومة، وكنت قد فقدت أمى منذ أشهر قليلة، فصار الدمع نهنهة، والبكاء نشيجًا، والموقف فضيحة، انشغل صديقى بجوارى بماذا سيفعل حين يتوقف الغناء فيرى الناس دموعى ويسمع الجمهور عديدى، اندمج الحضور فى التصفيق، بينما جريت بسرعة إلى خارج المسرح، هل يمكن لأغنية أن تفتق جدار عمرك، منذ سبعة عشر عامًا وأنا أتفادى هذه الأغنية فى حياتى، إذا عبرت أو مرت أو جاءت سيرتها، أو تردد نغمها أو لمحتها فى اليوتيوب.

أخيراً. قررت أن أختبر نفسى، فبحثتُ عنها مع سبق الإصرار والترصد، وشغلتها، مع أول رنة عود اكتشفت أننى لم أكف يومًا عن الدمع لأمى، صارت كل الأغانى تجعلنى أبكى أمى.

70

□ وقفت فى جنينة بيتنا وأنا أبكى ودموعى ساخنة وأكتم بكائى حتى لا تسمعنى أُمّى. أمسك بصفحات من ((الأهرام)) تحمل كل صفحة مقال يوسف إدريس الأسبوعى، كنت أقصّها وأجمعها وأضعها فى ظرف أصفر كبير من أظرف أبى، أخرجت الصفحات وجمعتها فى قبضة يدى دامعًا، وأخذت أمزّقها نتفًا ومزقًا وقطعًا وأقذفها فى هواء الجنينة.

كنت فى تانية ثانوى فى عام ١٩٨٢، وكان كاتبى المفضل وقدوتى العظيم إدريس قد نشر كتابًا هاجم فيه السادات، فانقلبت ضده أجهزة الإعلام وقتها واتهمته بالعمالة، صدَّقتهم وأُصبت بصدمة مدوية وأخذت أمزّق صفحات مقالات يوسف إدريس وأرمى كتبه، بعدها بعدة شهور كان مبارك وحافظ الأسد يتمشّيان بحرسهما ورجالهما فى الساحل الشمالى، فإذا بيوسف إدريس فى شرفة الفيلا بتاعته يناديهما فيجلسان معه ويشربون الشاى ويلتقطون لهم الصور وينشرونها فى الصفحات الأولى.

71

□ كنت أول اسم فى لجنة امتحان الثانوية، فكانت جلستى فى آخر مقعد الملاصق للحائط، أمامى صاحبى الذى يحمل نفس اسمى، أنظر ناحيته فأجده ملتفتًا إلىّ بجزء من رأسه ساندًا على ظهره ويبدأ فى انتظار أن أغششه الإجابة عن أى أسئلة، توصّلنا إلى هذه الصيغة، أن يعيش هو فى الساعة الأولى من الامتحان مهراجًا هنديًّا يلعب اليوجا، بينما أنشغل أنا فى الإجابة، وحين أنتهى أساعده، لا يشترط أى طلبات، فقط ما يقيم الأود وينجح به فى المادة، فهو يريد الالتحاق بكلية الحقوق، ويكفيه مجموع النجاح ولا يشغل باله بدرجة أو نصف درجة ضائعة، راحة البال الفلسفية التى كان يعيشها سببها أنه ليس محملاً بأى توقعات، وكان كل ما يشغله هو بقاء صحوبيتنا وصحّتى فى أحسن حال. . خبرة الخمسين عامًا علمتنى أنه فى الحياة أنت الذى تحدّد درجة نجاحك، فلا تعش مفزوعًا من فقدان نصف درجة.

72

□ إنها غرف الانتظار فى العيادات المزدحمة تخيّم على قلبك بالكآبة، أضف إليها هذه الأعداد من المجلات القديمة المهترئة الملقاة أمامك على المائدة، وقد حفظت أغلفتها بالوجوه المبتسمة المائلة دومًا إلى جانب الصورة، لماذا لا تقف الفنانات وعارضات الأزياء مستقيمات فى الصور؟!

ممرض العيادة هو ملخّص كل الأمراض التى لا يستطيع طبيبه أن يعالجها، الإحساس بالعظمة، الرغبة فى التحكُّم، استغلال الضعف والظروف، السنكحة على الخلق، السيطرة على الطبيب نفسه، وهو فى معظم الأحوال إما كئيب أو لزج، يفرض قناة ((المجد)) على زبائن العيادة أو ((بانوراما دراما)).

تأخّر الطبيب وزاد زحام العيادة، مما جعل البعض واقفًا فى الممرات وآخرين عند السلم، فجأة انطلق عبد الحليم حافظ يغنى ((بحلم بيك أنا بحلم بيك))، كانت رنّة تليفون أحد الجالسين، وبينما كان يحاول إغلاق الصوت سَرَت فى زحام العيادة بهجة رطّبت توترنا وانتظارنا، مع استمرار الأغنية صعدت فرحة للعيون وابتسامات بين شفاهنا، قفل المريض الصوت، تململنا وبعد برهة صمت، قال اثنان

معًا فى صوت واحد لصاحب التليفون: ممكن تشغل الأغنية تانى؟ ارتبك، فقلت له: نمرة تليفونك كام؟ فأملاها، طلبته وأخذنا نسمع جميعًا ((بحلم بيك))!

الفارق عميق بين الحذر والخوف الذي لا يدركه إلا الحذرون



73

□ كانت صيحاتهم الحارة ترتفع على رصيف المقهى، منغمسين تمامًا فى نقاش يعلو ويهبط بأفكارهم، مجموعة من المثقفين الذين يحبون أن يطلق الناس عليهم ذلك الوصف ويحملون اللقب فوق أكتافهم، فتطول قاماتهم ينظرون للناس من فوق، يبدو كل شىء أمامهم قابلًا للكسر كى يصلحوه وللهدم كى يبنوه، ساخطين للسخط فقط، اكتفوا من الحلم بالاحتلام، رغم أن معظمهم يلعب الطاولة ويحتد فى خناقته مع منافسه إلا أن شيئًا ما يمنحهم حق الترفع والتعالى على أحذيتهم الملوثة وقمصانهم المزيتة ويعطيهم الحق فى عدم سداد ديونهم لجرسون القهوة، كان يمر هذا الرجل على المقهى ممن يقصدون مصلحة حكومية مجاورة متخصصة فى تعذيب المواطن للحصول على ختم النسر، منهكًا ومرهقًا ومهزومًا للغاية، أحس ريقه ناشفا اقترب من مائدة المجموعة واستأذن فى تناول كوب الماء ليشربه، أومأ أحدهم بالموافقة غير مبال، رفع الرجل الكوب ناحية فمه ثم أبعده عنه فجأة وقذف الماء فى وجوههم فأغرقها، ومضى بهدوء وتركهم مبهوتين.

74

□ كنت أخفيه قبل أن تعود زوجتى، اتصلت بها وعرفت أن أمامها أكثر من ساعة على العودة، فأدركت أن لا يزال أمامى وقت، دخلت غرفة النوم وكنت قد تفاديت دخولها أيامًا، منذ وقعت عينى عليه لم أتمالك نفسى من الألم الموجع الممعن فى تقطيع شرايين روحى، أدركت أن زوجتى لو عادت إلى البيت ورأته ستكون ليالى للحزن المقيم وأيامًا لجلل الألم، اتصلت بالنجار، هو نفسه مَن صنعه وركّبه، كانت عيناه عندما دخل معى الغرفة خجلة وكسيرة، بدأ العمل وأنا أتابعه كمَن يفكِّك ضلوع قلبى، كان يحلّ سرير الطفل الذى وضعناه بجوار سريرنا تمهيدًا لاستقبال أول أولادنا، كان ميلادًا صعبًا وموتًا سريعًا، أربعة أيام قضاها ابننا فى المستشفى، ثم ذهبت لدفنه فى مقابر البلد، كان حزن دفنه أقل توحّشًا من هذه اللحظة، حيث نفك سريره الذى لم ينم عليه، حلّ النجار قطع السرير وفكّها تمامًا، ثم حملها وخرج، قلت له مبحوح الصوت مزدحم الدمع وهو على السلم: ((لا تتصرَّف فيه، سنركّبه تانى بإذن الله)). ثم نزلت لأصحب زوجتى فى العودة.


ANGRY
ANGRY

75

□ مَددت على السرير مصوّبًا اهتمامى وتركيزى على شاشة التليفزيون، تعلقّت جدًّا بهذا الكارتون، جرَّنى يحيى وفاطمة إلى داربى ووينى بو، كنت أنتظر موعد الكارتون حتى أرمى نفسى بين الطفلَين وأتابع الأحداث مُبتهجًا أسترد طفولتى معهما، حتى إن فاطمة كانت تنادى: ((بابا، الكارتون بتاعك جه)). كبرا الآن، كلما جلست معهما وهما يشاهدان مسلسلات المَراهقين، بينما يمعنان فى شاشة ((الآيباد)) يتابعان فى نفس الوقت شيئًا على ((اليوتيوب))، أشعر غرابة مسلسلات المراهقين وأخاف منها، بينما أركّز جدًّا فى أدوار الآباء والأمهات. الحوار باللغة الإنجليزية بلا ترجمة، ألتفت إلى يحيى وأسأله: ((بيقولوا إيه؟)). تذكَّرت جدّتى الأُميَّة وهى تسألنى نفس السؤال وهى تتابع الفيلم الأجنبى ولا تعرف قراءة الترجمة على الشاشة. لا يحيى يُجيب ولا فاطمة، بل يضحكان، يتكاسلان عن الترجمة ولا يريدان الانشغال بإفهامى. حين يظهر كارتون داربى مصادفة على الشاشة وهى تقلّب المحطات، أصيح بفاطمة: ((الله، داربى يا فاطمة))، تنظر إلىّ مترفّعة جدًّا وتغيرِّ المحطة.

76

□ كنت أقف أمام مجلات الحائط المفروشة الآن على الأرض، متنبهًا ومتحفزًا ومستعدًّا لمهمتى الجديدة، كلفنى أصحابى باعتبارى المثقف اللى فيهم أن أكون المسؤول عن الوقوف فى المعرض لمناقشة الطلبة الذين سيأتون لمشاهدة اللوحات والمجلات والمعروضات المفروشة على الأرض أمام قبة جامعة القاهرة، كنا فى منتصف الثمانينيات والجامعة تستعيد شيئًا من النشاط الطلابى السياسى وقتها، المعرض عن جمال عبد الناصر صورًا وكتبًا ومقالات ورسومات، كانت تجربتى الأولى، ريفى قادم من مدرسته إلى آلاف الطلبة يعبرون أمام معرضه، فى نهاية اليوم كنت أعرفهم وهم يقتربون من المعرض هذا طالب طيب يتصارع عنده اسم عبد الناصر بين زملائه الإسلاميين الذين يلعنونه ووالده الذى يحبه، هذا طالب جاء ليسخر من العيال اللى فاكرة نفسها مهمة، هذا عدوانى جاء ليعلن كراهيته ويمشى، هذا إسلامى جاء ليلعن ويسب عبد الناصر أمامك فتحاول أن تناقشه فيغور من وشك، هذا طالب مباحث جاء ليقول لضابطه إنه أدى دوره، لا أتذكر مجىء طالبة للمعرض أبدًا، لماذا خلا نادى الفكر الناصرى من البنات فى سنواتى الجامعية الأربعة، أشرت لصاحبى ونحن

نجمع المجلات ونلم المعرض: ((لماذا لا تهتم البنات بالسياسة، أم لا تهتم بعبد الناصر؟)).

حين وصلنا غرفة المدينة الجامعية حيث نضع المعرض جاوبنى أخيراً: ((عبد الناصر مالوش دعوة، البنات لم تهتم بك أنت)).

عندما تتكررالكذبة مئة مرة تصبح حقيقة، فما بالك بألف مرة فى الدقيقة



77

□ كانت خالتى أميمة هى مسؤولة الحواديت فى بيتنا، لا يزال فى ذاكرتى وجهها الشاب شديد البياض والاستدارة، بنغمة صوتها الإذاعى (أحلى صوتًا من ماما نجوى وأكثر درامية فى الحَكْى من أبلة فضيلة) تحكى لى حواديت لم يكن كلانا يشترط قبل النوم توقيتًا لها.

أجواء الحواديت بشوارعها وأبطالها ودخانها وضبابها وأماكنها محفورة فى خريطة حياتى، كبرت معى عبر السنين، لماذا كانت حواديتها كلها مشحونة بمشاهد الرعب والسوداوية؟ أمّنا الغولة بطلتها المفضلة، والعفاريت هم أشرارها والأطفال الذين تحولوا إلى عصافير وقطط ينتشرون فى حواديتها إلى حدٍّ شككنى فى كل حيوانات جنينة بيتنا، العصفور الأخضر الذى يمشى على الحيطان يتمخطر هو الابن الذى قتلته زوجة أبيه، وتخلى عنه الجميع ما عدا خالتى.

الآن أتابع خالتى وقد كبرت، تلاعب أحفادها وتشخط فيهم، وتكتشف بصعوبة نظرها الضعيف وجوهَهم، لم يعد أحفادها يسمعون حواديت خالتى وهى لم تعد تحكى، أين ذهب عفاريت

حواديت خالتى الطيبون؟

78

□ وقف صديقى الأستاذ الجامعى يغسل الأطباق بعدما فرغنا من الغداء، بينما تعد زوجته الشاى، أحببته جدًّا ليس لأنه متواضع أو متعاون مع زوجته، بل لأنه يجيد غسيل الأطباق، غسل الأطباق يعنى قدرتك على تحمُّل مسؤولية الآثار السيئة للأفعال الجميلة، أكره جدًّا غسل الأطباق، ثم إننى فاشل تمامًا فى هذه المهمة التى كان يكلفنى بها أصحابى فى شقتنا المفروشة فى الهرم، لم تعلمنى أُمِّى أبدًا الطبخ ولا شغل البيت، فقد اعتمدت فى هذا على أخواتى البنات، فلما جئت لأعيش وحدى لم أكن أجيد سلق بيضة، فتولَّى مهمة الطبخ أصحابى فى كل الشقق التى سكنت فيها معهم، بينما كان لا بد من أن أشاركهم فى عمل، فاختاروا لى غسل الأطباق، فشلت تمامًا، حتى إنهم كانوا يفضلون كسرها عن أن أنظفها، رفدونى، وصار شرطى لأى عيش مشترك أن لا أغسل الأطباق، من يومها لم أتعلَّم أبدًا أن أغسل صحون شغلى أو علاقاتى أو أحلامى من بقاياها العالقة.



79

□ أتوجه أولا إلى كشك بائع الصحف بجوار مدرسة المساعى المشكورة، حتى ولو كان جرس طابور الصباح يوشك على أن يضرب، أنا من أقدِّم الإذاعة المدرسية ولن يتحرك الطابور بغير حضورى، لينتظروا دقيقة، أتصفح فيها عناوين كل الصحف ثم أشترى جريدة ((الأهرام))، أنزع لبِّيسة القلم الجاف وأضع سن القلم على الصفحة الأولى، حيث أشطب كلمة نافع من اسم رئيس تحريرها إبراهيم نافع، وأكتب عيسى وأطويها فى الشنطة وأدخل المدرسة، كان هذا طقسى الصباحى لثلاث سنوات المدرسة.

ولا أظن أن تلميذًا فى إعدادى من بين ثمانية عشر مليون تلميذ فى مصر الآن يشترى أى صحيفة ولو حتى لأبيه، كان والدى من قرّاء ((الجمهورية)) من أيام جمال عبد الناصر، لكننى نجحت فى تحويله لـ ((الأهرام)) وفى تحمله قراءة جريدته المفضلة تحت رئاسة ابنه فى أولى إعدادى، ظل والدى العظيم حتى آخر يوم فى حياته يشترى الصحيفة التى أترأس تحريرها.. ليس للصحف معنى بعد رحيلك يا أبى.

80

□ كنت أطلب من أمى أن ترسلنى لأداء أى عمل والقيام بأى مشوار إلا أن أشترى الأنبوبة، هذه أثقل مهمة فى صباى، كان زحام مخزن الأنابيب لا يحتمل، خناق وشجار وعراك وضرب وشتائم أضيع أنا بين الأقدام والأيدى والألسنة الطويلة، حتى يأتى الصول عوض بجسم ضخم ببدلته الصفراء وزرايرها النحاسية وشاربه المبروم وكرباج طويل يلسع به المتزاحمين، وهو يصيح فيهم، فينتظم الكل فى طوابير، كان الصول عوض يأتى بناء على استدعاء المسؤولين عن مخزن الأنابيب، بعد فترة صار الناس إذا ما تزاحموا وتعبوا من الشجار بينهم صاحوا ((هاتوا لنا الصول عوض يضربنا))، لم أكن خائفًا قط من الصول عوض؛ لأننى كنت مسالماً جبانًا لا أفعل إلا انتظاره لينقذنى من هرس الكبار لى، لكننى كنت أكره هؤلاء جميعًا الذين يجعلوننى أنتظر الصول عوض حتى لا تغضب منى أمى، عندما كبرت، كان الصول عوض قد كبر وشاخ، والمخازن زادت والأنابيب تصل للبيوت، لكننى لم أتوقف عن سماع هذا النداء البائس اللاهث: ((هاتوا لنا الصول عوض يضربنا)) .



81

□ ظلَّت سنوات هناك فوق هذه العمارة التى كانت أيامها أعلى عمارات مدينتنا ارتفاعًا، على أطراف المدينة كانت مجموعة عمارات المساكن الشعبية التى بناها عبد الناصر لمحدودى الدخل، فوق إحداها كان عمود حديدى ينتهى ببوق يشبه الميكروفون، تراه لما تقف فوق رصيف محطة السكة الحديد، إنها زُمَّارة الخطر، حيث كانت تنطلق بصوتها العالى الزاعق الطويل الممتد يُخَيِّم على المدينة كلها، فيثير فى طفولتنا الفزع والجزع، لم نكن نفهم معنى هذا الصوت الصادر من الزُّمَّارة، حتى فهمناه من عيون أهالينا وجريهم بنا وسعيهم للاختباء، عندما نسمع الزُّمَّارة ندرك الخطر فورًا، غارات الطائرات الإسرائيلية تحلّق فوق الدلتا، وفى مدينتنا مطار كان هدفًا وكنا معه هدفًا، لم تعد زُمَّارة الخطر فوق سطح العمارة العالية التى لم تعد الأعلى، لكن ما زلت أسمع هذه الزُّمَّارة فى أُذنى كل هذه السنوات من فرط ما نعيش من غارات!

82

□ نخرج من الامتحان وهو راضٍ مطمئنٌّ وأنا واثق مغرور.. يقول لزملائنا إنه لا يحب أن يراجع إًجاباته بعد الامتحان كى يركز فى القادم، بينما أنا أدقق فى الإجابات مع المتفوقين أمثالى ومع أساتذتى حتى أتأكد هل سأحصل على الدرجة النهائية أم سأخسر درجة أو نصف درجة.

كنا فى الثانوية العامة، وعقب امتحان علم النفس والمنطق، التفت ونحن نراجع الإجابات كالعادة السيئة، وقال لى مستغربًا إن هذه الإجابة التى كتبتها فى الامتحان خاطئة. ركبنى ((ستين عفريت)) مع حالة استنكار كاملة ((ما الذى تقوله؟)).

قال لى: ((يا إبراهيم دى غلط))، وبدأ يشرح لى أن هذا هو الشىء الوحيد الذى يعرفه فى هذه المادة. رفضت بكل إباء وشمم هذا الكلام الفارغ. وقلت له: ((بل أنا الصح)) ، وبينما بدت نظرتى واضحة إنه ماتنساش نفسك، كان متأكدًا جدًّا من إجابته لكنه أيضًا كان متأكدًا من تفوقى ومستندًا إلى عقلى، فى ما بعد عرفتُ أنه هو الصح، وأن إجابتى خاطئة.

كان هذا آخر امتحان فى حياتى أصمم فيه على أن كل إجاباتى

صحيحة.

83

□ كنت أقف فى مدخل السينما، كل هذا الزحام من أجل فيلم ((حمام الملاطيلى)) فى منتصف الثمانينيات، حيث لأول مرة سينما فاخرة تعرض هذا الفيلم السبعينياتى، بعيدًا عن سينمات الدرجة الثالثة المهلكة فى ابتذال المشاهدة وسعار الفرجة، لهذا كنا وجوهًا شابة تتزاحم فى انتظار أن يطل موظف السينما عند الباب الداخلى لقاعة العرض ليتسلم التذاكر ويقطع كعوبها ويسمح لنا بالولوج إلى قاعة الحلم، فوجئت به أمامى.

كان معى فى الكلية قبل ساعة ولم يقل إنه قادم، ضحكنا عندما اكتشفنا المفارقة، ثم أخذنا الزحام لرُكن فى المكان، فصادفنا ثلاثة آخرين من زملاء ذات المدرج فانطلقنا جميعًا نسخر من أنفسنا، وكيف انكشف سرنا أمام شمس البارودى، حين بدأ الدخول إلى القاعة سمعنا صوتًا مألوفًا، تحققنا بنظراتنا من بعضنا، ثم توجهت عيوننا تجاه مكانه فرأيناه، كان هو فعلًا وكان آخر ما توقعناه من مفاجآت، كان زميلنا الكفيف يقوده عامل السينما لمكان مقعده.

84

□ غالبًا اتهبل، كان هذا شعورى ساعتها دونما التباس، لا أنكر أننى خفت. ومن لا يخاف من صاحبه حين يقف غاضبًا خلال الحديث ثم تشتعل ملامح وجهه نارًا، ويصرخ بكلمات غير مفهومة، ثم تتحول ألفاظه كلها إلى اللهجة الصعيدية! باغتنى تمامًا، هو دمث جدًّا، تحول إلى قليل الأدب، هو هادئ جدًّا، تحول إلى عصبى مجنون، لكن أن تتحول لهجته من الكلمات العادية القاهرية أو حتى الريفية إلى لهجة الصعيد بقافها التى تصير دالًا أو جيمًا وبالرنين الجنوبى الذى يجر كل الكلمات إلى تحت، فهذا هو ما شوَّشنى فلم أنتبه إلا عليه وهو يبدأ فى ضرب الأثاث فى المكتب، يحاول تحطيم الكراسى، وإزاحة المكتب الثقيل فلا يقدر، لكن لا يكف، يخبط بقدميه حافة المائدة. من المؤكد أنه توجع، لكنه يتكتم الألم، يزيح الدولاب المعدنى فيئنّ بصوته الصفيحى، كان أكثر ما يحيرنى حين هدأ وصفا أخيراً وبدا كأنه إنسان تانى، هو: ما الذى جعله ينفجر غضبًا أصلاً؟!


فاتن حمامه
عماد حمدي
نادية ذو الفقار
SVassiliou
موعد مع السعادة
تأليف وإخراج: عز الدين ذو الفقار
توزيع دولار فيلم بالقاهرة

85

□ ((الرجل الثانى))، ((طريق الأمل))، ((ابن حميدو))، ((صراع فى الوادى))، ((شاطئ الأسرار))، ((دعاء الكروان))، ((موعد مع السعادة))، ((لن أعترف))، ((يوم من عمرى))، ((رصيف نمرة خمسة))، ((أرض النفاق))، ((الأيدى الناعمة))، ((صباح الخير يا زوجتى العزيزة))، ((غرام فى الكرنك))، ((الإنسان يعيش مرة واحدة))، ((البحث عن فضيحة))، ((أجازة نصف السنة))، ((عودة الابن الضال))، ((بين الأطلال))، ((الفتوة))، ((السبع بنات))، ((حرامى الورقة))، ((العار))، ((مراتى مدير عام))، ((الكيف))، ((المنزل رقم ١٣))، ((الشياطين الثلاثة))، ((شنبو فى المصيدة))، ((العتبة جزاز))، ((السفيرة عزيزة))، ((جناب السفير))، ((اعترافات زوج))، ((أم العروسة))، ((كرامة زوجتى))، ((إشاعة حب)).. كانت هذه قائمة الأفلام التى كتبتها فى أجندتى، أحذف منها فيلمًا أو أضيف فيلمًا كلما حانت لحظة الإوشاك على قضاء عقوبة السجن بعد الحكم فى أى قضية من قضاياى فى عهد النظام الأسبق، عندما قالوا لى إنه يمكن الحصول على فيديو فى السجن بطرق خاصة، قررت أن أقضى سجنى قارئًا للكتب ومشاهدًا لهذه الأفلام.

86

□ إنها النوة، أول مرة أعيشها فى الإسكندرية، خبرتى الأساسية مع عواصف التراب، مصر بلد التراب، كل سنتيمتر فى حياتنا يحتضن ترابًا، لذلك حين يعصف الهواء يتحوَّل إلى رياح ترابية فورًا، تنقل ذرات التراب من أرواحنا إلى حلوقنا، (من التراب وإلى التراب نعود). هذه الجملة التى يرددها الوعاظ فى المساجد لا تنطبق علينا. نحن فى التراب أيضًا بين النشأة والعودة، لكن الإسكندرية ترابها رمل الشواطئ، هذه المدينة الساحرة (تحوَّلت الآن إلى ساحرة حكايات ألف ليلة وليلة)، الفرق بين جنيّات الحواديت وساحراتها يعرفه الأطفال والحالمون والجبناء، كانت غرفة المعيشة واسعة ورحبة، مطلة على البحر، فأحكم الكاتب الكبير الذى كنت فى ضيافته أبواب الشبابيك والبلكونة، منعًا لتسرُّب الرعد مع البرد، صوت الموج يضرب فى الصخر كان أوضح من أن تغطيه أغنية أم كلثوم الدائرة، فجأة دخل صديقه إلى الغرفة وقبل أن يرحّب به توجَّه إلى البلكونة، ففتح شُرّاعتها ووقف قبالتها بصدره، فأطلق البرد حممه علينا، ضحك الكاتب وقال لى: ((معلهش أصله مكتئب شوية)).

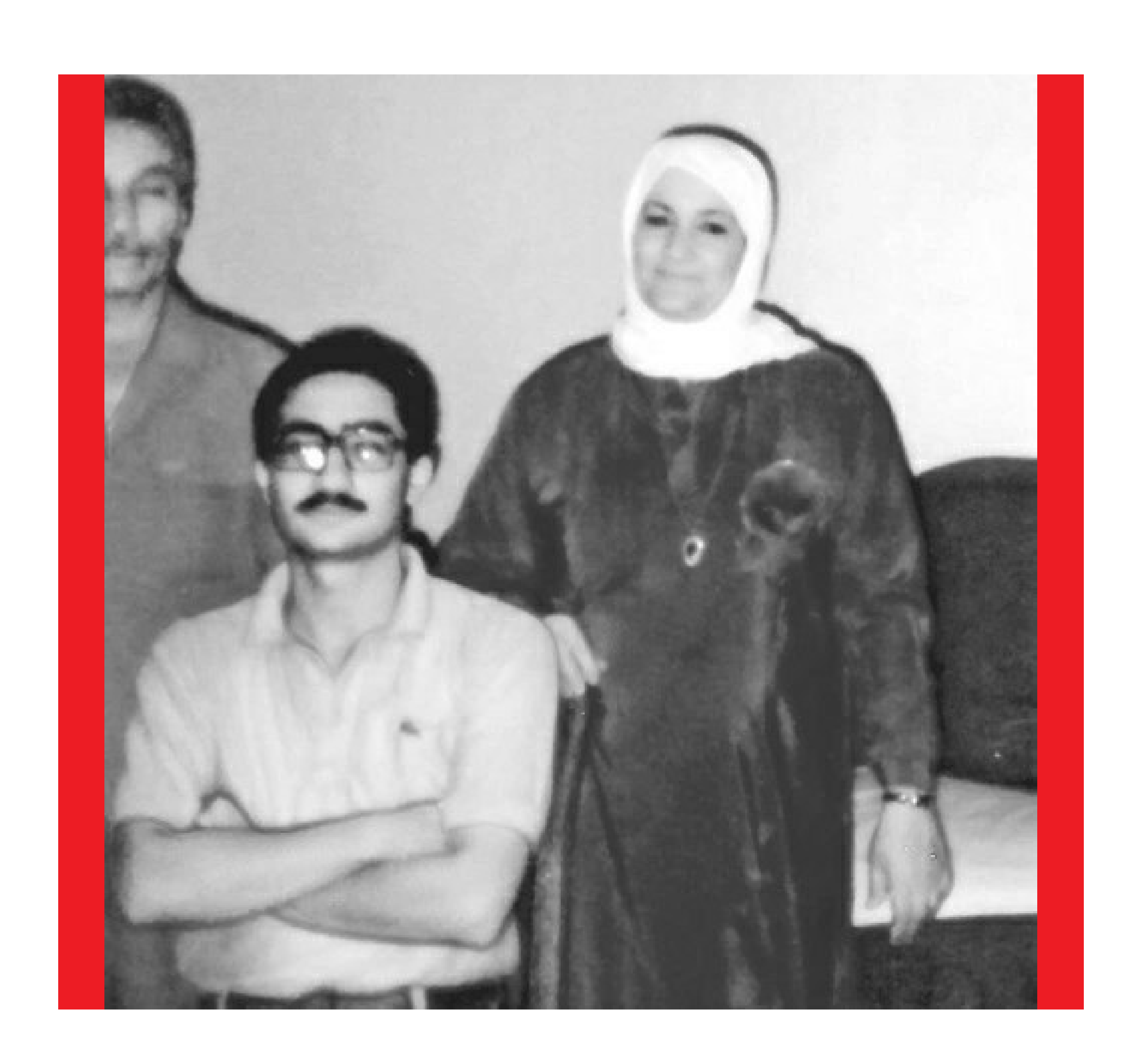
87

□ ناقص تطلع لك أخبار من التلاجة، تتعرَّض كل لحظة فى مواقع النت ورسايل المحمول وصفحات الفيس وحسابات التويتر وشاشة التليفزيون ونشرات الإذاعة إلى مئات الأخبار، بعضها أخبار بجد، وفى معظمها شائعات أو أكاذيب صرفة أو أنباء مبتورة أو مزوَّرة أو غير دقيقة، فلا أحد يدقِّق أو يدق. وغير محققة، فلا واحد يهتم بأن يحقِّق أو يحق.

هنا بالضبط تفقد حريتك فى المعرفة.

عندما تتكرر الكذبة مئة مرة تصبح حقيقة، فما بالك بألف مرة فى الدقيقة؟

حين ذهبت فى شبابى فى رحلة إلى ألمانيا وقررت أن أشترى جبنة للعشاء، وقفت فى سوبر ماركت ضخم أمام أكبر رفوف تضم عشرات الأنواع من الجبنة شُفتها فى حياتى، كانت اللحظة الأولى التى أشعر فيها أنه عندما تتعدد الخيارات تفقد الحرية. الآن حين تتدفق أمامك مئات الأخبار (والتى هى أقل مذاقًا من الجبنة قطعًا) تفقد فعلاً المعرفة.



88

□ ظل الأنسولين هو صديق عائلتنا منذ أصاب السكر أمى، صرنا جميعًا نحفظ الفرق بين الأنسولين البشرى والحيوانى، أسعار الأنسولين وتدرجها وصعودها، الأنسولين المائى، ماذا يفعل الأنسولين للبنكرياس، أثر نقص الأنسولين فى الجسم، كنا أطباء أمى بنظرات العيون حين نتابع إرهاقها أو ضعفها أو حيويتها (كانت أمى جبلاً من النور)، كان عم فوزى التمرجى هو ضيفنا الدائم لإعطاء أمى الحقن، ثم تعلم والدى كيف يعطى الحقن رغم ألمه الشديد من غرس سن الإبرة فى أمى حتى تتغير ملامحه وتدمع عيناه بعدها، خصوصًا عندما تكون الحقنة فى الوريد يبحث معها مستحثًّا، ويربت برفق على بطن ذراعها بحثًا عن وريد، سافر والدى للتدريس فى ليبيا فتعلمت أمى كيف تعطى لنفسها الحقنة، ثم بدأ الجيران إن مرضوا جاؤوا إليها كى تعطيهم الحقنة، تعود أمى من غرفة الصالون الذى لم تتغير فيه لوحة مدينة فينسيا القماشية منذ بنينا هذا البيت، تجلس على الكنبة وهى تتنهد مرهقة ومتألمة من القدم السكرى، تهمس: ((ربنا يشفى فلانة دى تعبانة قوى)).

89

□ كنت مندمجًا فى الحديث، أتكلم عن السينما، عن الأفلام الأبيض والأسود، الاستديو فى الصباح حيث أسجل حلقة برنامجى هادئ، ليس فيه هذا الركض والصخب والزحام والتقاطعات التى توحى بأنك فى مركبة فضاء اكتشف ركابها أنها ضلّت طريقها إلى القمر، كنت قد اعتدت أن أسجل هذه الحلقات فى هذا التوقيت من كل أسبوع رغم تذمر الزملاء من المصورين والفنيين، حيث إنهم يتأخرون فى البرامج الليلية للغاية حتى إنهم يصلون بيوتهم قرابة الصبح فيصبح مطلوبًا منهم التواجد أمام الكاميرا ظهرًا لتصوير حلقاتى، أكل العيش مُر لكلينا، لا موعد آخر ممكن، حين أحكى عن أفلام الأبيض والأسود أشعر بروحى تضىء بهجة كأنما أستعيد كيمياء النفس الهادئة، علاج ناجع جدًّا للاستدفاء شتاءً وللطراوة صيفًا، لكن بينما أخاطب الكاميرا سمعت صوتًا غريبًا يملأ أذنى، تجاوزت الصوت الذى لم ينتبه له أحد فى الاستديو، أكملت لكن الصوت ارتفع ثم اكتشفت أن المصورين جالسان على مقعديهما وراء الكاميرتين يشخران وقد راحا فى النوم.

90

□ ((اعمل لى رجلى))، هذه هى جملتها تقولها مدموغة الحروف مطمئنة تمامًا للاستجابة، تأمرنى فاطمة بأن أدلّك رجلها حتى تستطيع أن تنام، تشمت العائلة كلها فِى، دللتها حتى صرت موظف مساج قدمها منذ وعت الكلام، تذكَّرت جدتى لأمى حيث كنت أطلب منها ناعسًا: ((اهرشى لى ظهرى يا نينة))، كانت أُمّى تلومها على أنها أفسدتنى بهذا الدلع، ثم تورَّطت أُمِّى فى تدليلى كأنما خُلقت لى وحدى، زارنى صديقى الناشر وكنا نتعرَّض لهجمة هائلة من الدولة لمصادرة الجورنال، فضلًا عن أزمة مالية كادت تطيح بنا، كان الموضوع مهمًّا والمقابلة عاجلة، فجاءنى فى البيت متأخرًا وكانت فاطمة لم تَنَم بعد، وتطلب مُلحّة تدليك رجلها، استأذنته نقعد فى غرفتها، وبينما كان يتناقش منفعلاً وواضعًا مصير الجورنال أمامنا، كانت فاطمة تمد يدها إلى كتفى تقطع حوارنا وتشير: ((إلى هنا))، حيث موضع آخر لتدليك رجلها أو كعبها، يستمر فى نقاشه حتى تقاطعنا فاطمة وأنا أستجيب إليها وأُخلص تمامًا فى مهمتى. فى الليلة التالية جاءنى واتصل بى من تحت العمارة، فقلت له: ((اصعد))، سألنى: ((هل فاطمة صاحية؟))، قلت: ((نعم))، قال لى: ((يبقى انزل أنت)).

91

□ ما زلت أتذكَّره بلحيته البيضاء وجلبابه الأخضر بنفس لون العمامة راكبًا فوق حصانه مبتسمًا تتزاحم حوله المئات من القرية، الأطفال هم جمهور النهار مع النساء، بينما يزداد عدد الرجال بعد العودة من الغيطان مع العصارى وقدوم المغرب، الليلة مولد الشيخ أحمد، وهذه زفّة الشيخ النهارية التى تمتد حتى يبدأ حفل المولد فى الشونة المجاورة للمدرسة، كان كل بيت يمر عليه الشيخ أحمد يقدّم له مشاركته فى المولد، يمدّه بالفلوس المحدودة، راجيًا المدد والعون، منشدًا البركة، صوانى الأطعمة الساخنة والفطائر وأقراص الكعك تخرج من البيوت مع المغيب تفرش المائدة المفتوحة لأهالى البلد، كنت وأنا الزائر للقرية أسأل عن هذا الصبى الذى يركب مع الشيخ أحمد، هو فوق الجميع وموضع النظرات وفوق حصان البطولة وبين يدى بركة الشيخ صاحب المولد، كان ابنه، غبت عن القرية كل هذه السنوات ولم أرجع لأجلس على أعواد اَلقطن الناشفة فوق الأسطح أتابع مرور موكب الزفَّة أو أتهللَّ للمُنشد الذى بدأ يغنِّ حكايته فوق المقطورة داخل الشونة، لكن حصان الشيخ أحمد بقى يصهل بالحنين فى قلبى.

اكتفوا من الحلم
بالاحتلام



92

□ نجلس أمام غرفة طبيب التحاليل الأشهر فى ذلك المركز الطبى الأغلى فى المكان الأبعد من القاهرة، كنت وزوجتى قد فقدنا طفلنا الأول بعد مولده بأربعة أيام، ننتظر الآن أن يسمح لنا هذا الممرض اللزج بالدخول للطبيب لإطلاعنا على نتائج التحاليل حول المخاطر الصحية على الجنين إذا تكرر الحمل، مرَّ موعدنا المحدد وعبرت الدقائق ثقيلة طويلة باردة مدببة تضغط على قلبينا حتى تدوسهما وتهرسهما، نتوقع سر التأخير بسوء النتائج، سواد هائل سيطر على كل نقطة بيضاء فى خلايا أفكارنا، وعصف بنا الانتظار يقتلنا بلا رحمة، قرابة ساعة حتى أذن لنا الممرض بالدخول، استقبلنا الطبيب مبتسمًا ضاحكًا، وقال: ((النتائج ممتازة))، كأن يدًا إلهية طبطبت علينا فبثت فينا هدوءًا راضيًا شاكرًا، لكن عند خروجى سألت الدكتور: ((ليه أخرتنا كل ده، كنا ح نموت رعبًا))، انتفض غاضبًا: ((أما تمرجى حمار ماقاليش إنكم هنا إلا من خمس دقائق)).

93

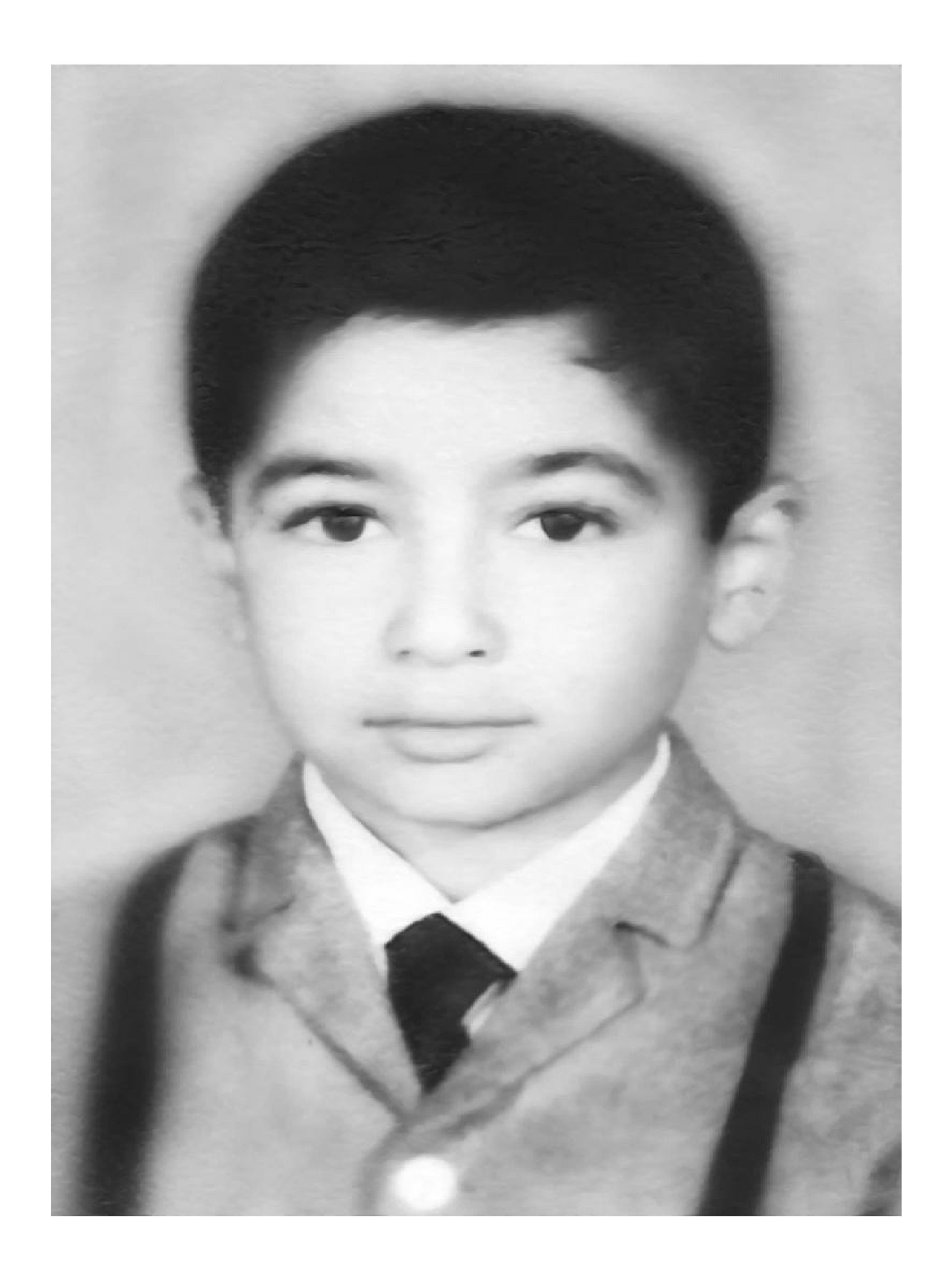
□ كنا فى حر يوليو القائظ، يتحول إلى نموذج للجحيم داخل قاعة مَحكمة تعطلت مراوحها وزاد زحامها، كنت محاطًا بالمحامين وبالأحبة وبأجواء الترقب والانتظار، وقف وكيل النائب العام فترافع ضدى متهمًا حتى كدت أُصَدق يومها أن مصر ستكون أفضل لو توقفت عن إبداء رأيى فيما يحدث فيها، كان الرجل باهرًا فى إخلاص ادعائه، انتهى من مرافعته راضيا تمامًا عن نفسه وكنت أنا راضيًا تمامًا عن نفسى، طلب القاضى من محام بالحق المدنى المرافعة، فصبَّ المحامى مزيدًا من اللعنات علىّ شخصى، فإذا برجل ينبرى واقفًا فى القاعة صارخًا فى المنصة: ((هو فيه إيه كلكم على إبراهيم عيسى كده ليه، هو مافيش فى البلد غيره؟!))، تجمدت القاعة كلها وتفاجأ القاضى فصرخ فيه: ((إنت مين يا راجل إنت وإيه اللى إنت بتقوله ده؟!)).

تلفت، تبادلنا الابتسامات، ونظرت للرجل بامتنان حقيقى، الذى خاطب القاضى وهو يستسلم للأيادى التى تشده ليجلس: ((ده ناقص تقولوا إن عيسى اللى عطل المراوح!)).



94

□ كنت طفلاً وقورًا جدًّا، لا أجرى مثلهم، لكننى كنت مبتهجًا وسعيدًا عندما أتابع أصحاب الشارع وهم يجرون وراء عربة الرش، هذا الاختراع الحانى الذى يجب أن تُقَبِّل مصر رأس مخترعه، يرفق بنا ويدللنا برشّ المياه، تخرج مندفعة كالنافورة المتحركة من مؤخرة عربة النقل التى تحمل فنطاس الماء، فيجرى الأطفال والصبية خلفها تبللهم وهم مهللون بالفرح وانتشاء البرد الرطب فى ساعات الحر القائظ، يصرخ أحدهم فى الشارع: عربية الرش جَت، صياح طفولى وهتاف رفيع وحروف متلعثمة، يقفز البعض من بلكونات الدور الأرضى، ويندفع آخرون من الأبواب يلحقون بها وهى تأتى يصحبها صبية الشارع الآخر الذى كانت فيه، هنا أعرف لماذا لم أشارك أصحابى، فالمعركة تدور فورًا بين الذين جاؤوا معها مبللين مرحين مستقلين العربة وبين أصحابى الذين يرون أنها صارت حقّهم وأن على الأغيار الرحيل، تنتهى المعركة فى الغالب بالتزحلق والوقوع فى برك الماء أو الطمى الذى صنعته المياه، والضحك الصاعد من الشرفات ومداخل البيوت، وفوز أصحابى فى شارعهم، حتى البهجة كانت من يومها تستحق معركة من أجلها.



95

□ كانوا يجلسون فى هذا الممر الخلفى للبيت، نزلت من السطح حيث فرقة الموسيقى تشعل البيت صخبًا، العروسان يتخليان عن الخجل، وتنزل الأمهات والخالات والصبيات مع الأخوال والأعمام فى حلبة رقص تهز السطح بالبهجة، خصوصًا عندما عزفت الفرقة أغنية رشدى، حيث جملته الألطف ليقوم زلزال، فأوشكنا أن نرى ريختر نفسه معنا على السطح، لكننى لسبب ما أجهله بعد قرابة خمسة وأربعين عامًا من ليلتها، نزلت وحدى إلى الممر الخلفى المؤدى للبيت من غير بابه الرئيسى، لم أفهم ما أراه وأسمعه، كان عدد من أقاربى القادمين من البلد يجلسون فى حلقة دائرية يدخنون الشيشة وقد ملأ دخانها المكان حتى غابت منى ملامح بعضهم وهم يصيحون بكلمة الله، ويضحكون ويتهللون وهم منصتون إلى هذا الكاسيت الضخم الموضوع بينهم يخرج منه صوت الشيخ عبد الحميد كشك فى إحدى خطبه، كان الدخان يعلو نشوة مع صوت الشيخ المجلجل الزاعق، لا أعرف حتى الآن أيهما كان الحشيش!

96

□ رفعت صوت الراديو فى السيارة وأخذنا الحماس، حتى إننا فكَّرنا أن نتّصل بالبرنامج المذُاع على الهواء، كنت أقود السيارة وبجوارى زوجتى عائدَين من زيارة أهلى فى البلد، اعتدنا أن ندير كاسيت اخترناه غالبًا لمحمد فوزى، وكنا قد اعتمدنا مع بداية زواجنا محمد فوزى مطربنا المفضّل، كما اخترنا شكرى سرحان نجم عائلتنا (أطفالنا كبروا ولا يعرفون لا فوزى ولا شكرى ولا حتى إسماعيل يس، لكن الحمد لله عادل إمام امتلك قلبهم)، فجأة أدرنا راديو العربية فجاءنا برنامج يطرح سباقًا على المستمعين بين أغنيتَين لكاظم الساهر وعبد الحليم حافظ، كنا فى أول الطريق وأول البرنامج، شعرنا باستفزاز شديد حين اختار أول المتصلين كاظم وليس عبد الحليم، وبدأنا ننتقد توالى المتصلين وهم يختارون كاظم، نهاجمهم ونغضب منهم وننتظر المتصل التالى، فلو قال عبد الحليم هلّلنا، وإذا اختار كاظم صحنا مُستائين، كانت السيارات تعبرنا والطريق نصف معتم، لكننا مشغولان تمامًا ومندمجان جدًّا، كيف لأحد أن يفوز على عبد الحليم حافظ؟! ده اللى ناقص. حين وصلنا القاهرة أخيراً كان عبد الحليم قد فاز بفارق صوت واحد، تبادلنا التهنئة الحارة واعتبرنا أننا وصلنا بالسلامة.

97

□ كان هذا أول ما طلبه منى أبى، كى يختبر كتابتى، كنت فى التاسعة تقريبًا وما زلت أذكر هذه اللحظة التى تركت بصمتها على قلبى لا تفارقه، كلما جلست أمام ورقة أو أنارت شاشة الكمبيوتر أمامى أتهيأ للكتابة، كأن يد أبى تضغط على هذه البصمة فيقرؤها جهاز معقد فى المخ ينطلق فيه أزيز أو رنين، ضوء رفيع صغير يشبه ثقبًا أو نقطة نور، فيسرى فى يدى نهر الكتابة. هذه اللحظة التى ابتسم فيها أبى وربت على كتفى وهو يرقب شغفى بقصة قرأتها، فقال متحمسًا يثير حماسى: ((خلاص يا إبراهيم ورِّينى شطارتك، اكتب قصة تنتهى بجملة: وهكذا تحققت عدالة السماء))، فقضيت نهارًا صعبًا فى تأليف قصة لتذهب جملتها الأخيرة إلى عدالة السماء، وكنت أسأل نفسى وما عدالة السماء كى تتحقق؟ ولمن؟

كتبتها أخيراً بكل طفولتى المغرورة، وقرأها أبى وابتسم راضيًا، بعد أن عدل كلمتين أو ثلاثًا بقلمه، ورسم علامة صح وكتب ((ثمانى على عشر))، عشت فترة طويلة حتى كبرت، أنهى قصصى بهذه الجملة: وهكذا تحققت عدالة السماء، ثم أمسحها مبتسمًا، الآن لا أكتبها أبدًا، لكننى أهمس لأذكِّر بها نفسى كلما أنهيت قصتى!



98

□ كنت صغيراً جدًّا إلى درجة أننى أراه كبيراً جدًّا، ملامحه السمراء الجنوبية وحركته الخفيفة رغم السمنة، يدير البوفيه فى المجلة، وكل العاملين فيه تقريبًا من نفس عزبته فى الصعيد وربما من نفس منزله، يملك مفاتيح صناديق الحكايات وشاهد منذ جاء المجلة طفلاً على دراما الصعود والهبوط فى المكان، َلا شىء سرًّا على عم عبد الراضى، لا من كبير ولا من صغير.

كنت أول شاب يدخل المكان بعد انقطاع أجيال عنه فصرت كأنى حفيد أحد تركوه وحيدًا فى صالة التحرير ومشوا، كان عم عبد الراضى هو الذى يمنح الجدد حق الجلوس على مكتب والحصول على نُسخ المجلة وفتح حساب فى البوفيه. الصحفيون قسمان، قسم يضرب الجرس يستدعى الساعى، وقسم آخر يذهب بنفسه لاستدعائه. حصلت على رضا عم عبد الراضى أسرع مما تخيل أحد، كنا فى أول يوم رمضان وقد فاجأنى سؤال عم عبد الراضى: ((تشرب إيه؟))، أجبت بأننى صائم. كنت مستغربًا جدًّا من السؤال، وهو كان مذهولاً من الإجابة، تنهّد وجلس على كرسىٍّ بجانبى وظل صامتًا حتى زادت دهشتى ثم تكلم هامسًا: ((تصدق يا ابنى إنت وأنا

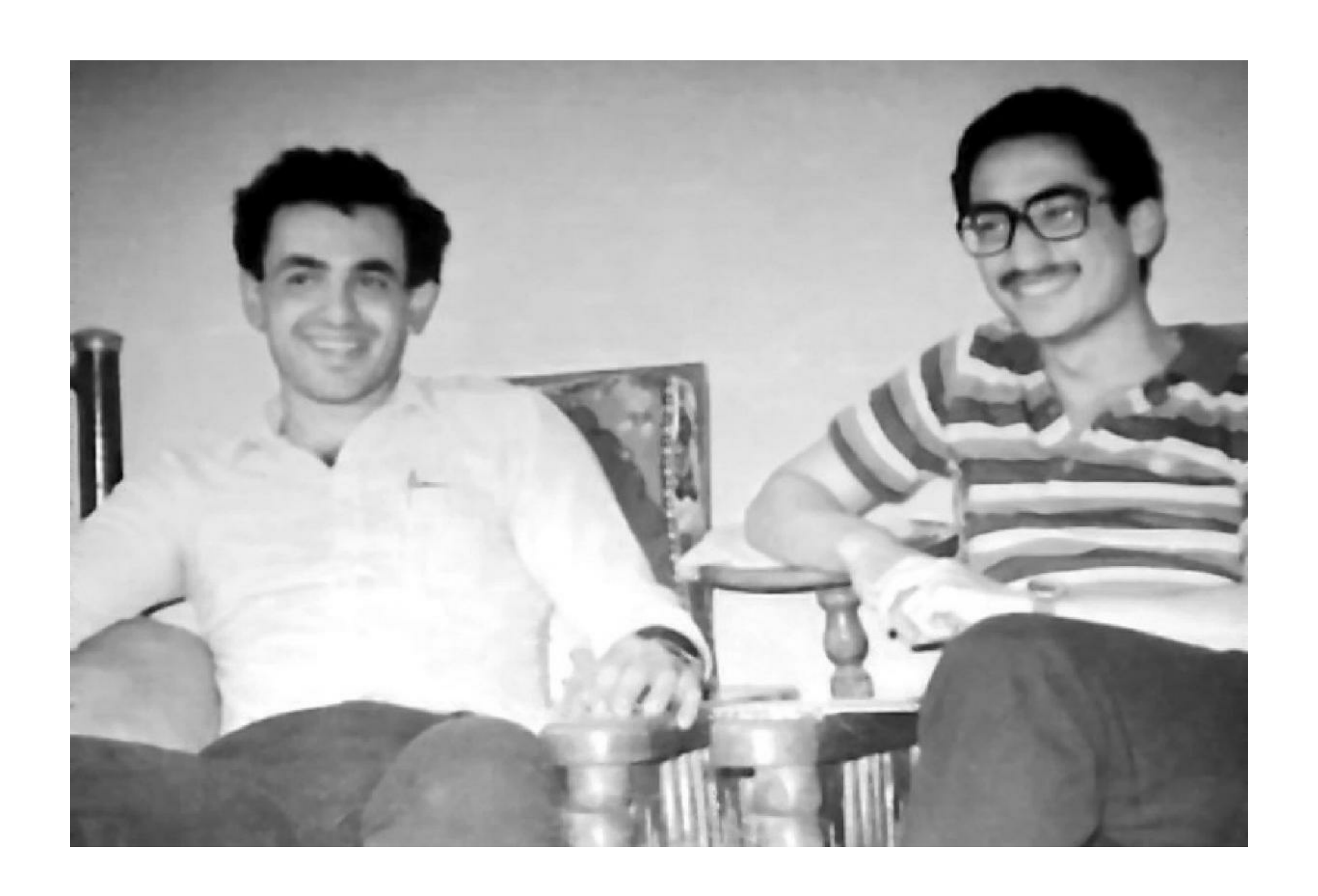
بس اللى صايمين فى المكان ده كله!)).

99

□ قالها متحمسًا جدًّا، إنه سوف يصلىِّ صلاة استخارة ثم يقرر سيخطبها أم لا.

ضحك أبى دون أن يبذل أى جهد فى إخفاء تهكُّمه على قريبى المتحمِّس، وعلقَّ: ((على اعتبار أنك ولىّ تقىّ ملهم، أنت لا تصلى أصلاً الفروض الخمسة ولا تحسنها لو صليتها)). كان والدى لا يطيق الادِّعاء الدينى، كان أحد أقاربى العجائز يتهمه قائلاً: ((إنت بتوسع فى الدين يا أستاذ سيد))، فكان يسخر منه: ((وهل هذه تهمة أصلاً؟ إنت فاكر إنك بتروح معايا تصلى فى الجامع إنك كده بقيت بتفهم فى الدين))، وكان صديقه العزيز الذى يزوره دومًا يدخل وسط ترحيب محب وحفى ومحتف من أبى، فيجلس وسطنا واضعًا عصاه بين ساقيه، وممسدًا لحيته البيضاء، هو رئيس جمعية أنصار السنَّة فى مدينتنا، يتكلمان فى الأهلى والزمالك والأسعار والأبناء وحال البلد والجمعية التعاونية وأخبار المدرسة والأقارب والأنسباء فى القرية وأنباء الوفيات والعزاءات والأفراح، ثم يمضى دونما أى حديث عن الدين، ذهبت للصلاة فى جامع أنصار السنَّة، وسمعت صديق والدى خطيبًا، عدت فسألت أبى عن مقولة غريبة قالها

الشيخ، فأجاب مترفعًا: ((سيبك منه))!



100

□ لم أكن قد اعتدت على كل هذا الزحام الرهيب فى القطار المسافر للقاهرة، أول قطارات الصبح هو أكثرها تكدسًا حتى إن الركاب يقفون على أبواب العربات فى القطار المنطلق، متشبثين ببعضهم كأنهم لاعبو أكروبات فى سيرك، كان حريصًا على دعوتى للتسلق فوق سطح القطار، لم يكن يزوغ من التذكرة، فهو طالب يملك اشتراكًا، لهذا استغربت دعوته وقراره بالصعود فوق سطح القطار فى رحلة الذهاب والعودة، رفضت رغم هرس ضلوعى فى زحام العربة ورغم نزولى على الرصيف، فأراه قافزًا من فوق السطح مع مجموعة من المسطحين تبتسم وتمرح فى عادية مدهشة، فى أحد الأيام سمعنا صراخًا مع ارتطام وعويل وفوضى، كان المتشبثون المعلقَّون على الباب يطلُّون على السطح وقد عرفوا سقوط شاب مخبوطًا فى كوبرى قليوب، وقف القطار فى الطريق وسط الفوضى العارمة والتكالب على متابعة الحادثة، لم أنزل وقبعت فوق كرسىَّ مفزوعًا مرتعشًا أن يكون زميلى هو ضحية القطار، حين عودة الركاب الذين أحسوا تحرُّك القطار فسارعوا بالقفز له، وجدته أمامى، كانت بقع دم متناثرة على قميصه ووجهه أصفر وشفاهه مزرقّة يرتعش ويحتضننى.



101

□ يظل المرء عمره فى غرفة انتظار، ينتظر قرارًا، خبراً، أمرًا، زيارة، شخصًا، علاجًا، قضاء، قدرًا، نتيجة تحليل، كشف أشعة، حكم محكمة. عندما أفكر فى أقسى لحظة انتظار فى الخمسين عامًا التى تنهى شهورها الآن أكاد أجزع من دقات قلبى تحطم قفصى الصدرى لا تترك فيه فتاتًا، أجلس على ذلك المقعد البلاستيكى الأحمر البارد فى أجواء هذا المركز الطبى وحدى، أنتظر انتهاء أمى من كشف الأشعة بجهاز جديد أول مرة أراه ينام فيه الشخص ممددًا وقد خلع هدومه إلا من رداء أبيض خفيف شفيف، ويتركونه وحيدًا فى الغرفة، وخارجها يتحكمون بالأزرار فى حركة السرير المعدنى، يدخل برأس المريض إلى كورة مفتوحة تضىء وتلف، تركت أمى وقد طال مرضها مأمورًا بالخروج وانتظرت، لكنى سمعت صوتًا مكتومًا فتنبهت وسألت الممرضة ما هذا الصوت. لم تجب. ضربنى القلق جريت نحو الغرفة المغلقة زعقوا فى وجهى يمنعوننى لكنه صوت أمى تنادينى، رزعت الباب وذهبت لها مبقور القلب كانت تبكى ضعفها مبللة الوجه حاسرة الشعر تلم رداءها الطبى الكريه وتنادينى، احتضنتها وهى تنهنه دمعًا: ((روَّحنى لأبوك يا إبراهيم)).

102

□ كان يأتى إلى الشرفة ويجلس هكذا نافخًا سيجارته متأملاً فى زحام الشارع يحيى العابرين، تقدِّم له أُمّ الشاى، بينما يتشاغب مع أبى حول السياسة وقد جلس بجواره وكل منهما يمسك بجريدته يقرؤها، يطويها جدّى ويناقش شيئًا فيها مع أبى، فينشغل عنه أبى بما يقرؤه، فيعود جدّى للقراءة، فلما يفرغ أبى مما يقرؤه يبدأ فى التعليق على سؤال جدّى، كنا نناديه ((يا جدى))، لكنه لم يكن جدّى كان صديقه، مات جدى وحمل اللقب صديقه، اليوم جاء مكدودًا ومرهقًا ولاهث الأنفاس، جريت نحوه فى جلسته وكانت أُمّ تستنطقه أن يجيب عن سر حالته، نظر إليها مشيحًا بيده، ثم قال: ((أنا لسّه راجع من تُربتى))، لم تفهم أُمّ، فكيف لى أن أفهم؟! حكى أنه ذهب إلى المقابر حَيث طلب من الترُبى أن يفتح تُربَته ونزل فيها، فرشّ رملَها جيدًا وسقاه وتمدَّد بظهره علَى أرضها، بل إنه غفا فى نومة سريعة فى عتمتها، لما صحا قام وخرج وجاء إلى هنا، صكَّت أُمّ بكفِّها على صدرها، ((ليه عملت كده؟)).

ضحك متهكِّمًا: ((ماتتخضيش كده، طلع الموضوع ما يخضّش قوى. باقولّك عَسِّلت ونِمت)).

بعدها بأسبوعين مات جدِّى الذى هو صديق جدِّى.



103

□ تأخذنى من يدى وتنفرد بى فى غرفتها، تجلس مرتبكة على أريكتها مهزومة تبرق عيناها بدمع منطفئ، بدأت تتحدث عن زوجها، كأنها ابنتى فى العاشرة من عمرها، قد كَبُرت عشرين عامًا هكذا فجأة!

حكت لى عن دعوة جاءتها من صديقة عزيزة -لا قريبة ولا مقربة- لمتابعة إحدى صفحات مواقع التواصل المعنية بصفات أطفال التوحد. تعجبت من ترشيح الصديقة لها لمتابعة تلك الصفحة بالذات. بدأتْ فى التصفح، فتفاجَأت بتطابق هذه الصفات مع سلوك وشخصية زوجها. تطابقًا وتجانسًا أصيلًا ومخيفًا. كيف أنهم يملكون حواسّ أكثر حدة وكفاءة من غيرهم، سمعهم حاد، يتألمون من أصوات هى عادية. نظرهم ثاقب يرون عيوبًا لا تُرى. ينزعجون من روائح لا تصل لمن حولهم. يهابون التزاحم، يجتنبون التجمعات، صمتُهم هو حالة دفاعية عن وعيهم بضعف قدرتهم على إيجاد الكلمات المناسبة. يمتلكون مزاجًا متقلبًا وقاتلًا.. كذلك هو. إن أردت منه شيئًا فقط اطلبه بشكل مباشر وواضح دونما أى لوم أو تشكيك أو اتهام بالتقصير.. كذلك هو. التوحد هو صفة

من صفات عديدة لأصحابه، يملكون مواهب مبهرة وقدرات رائعة وماهرة ومميزة.. كذلك هو. يطلب المتوحد ممن يعيشون معه أن يحبوه فقط دون أى قيد أو شرط. أضافت: ((أدركت حينها أننى لن أتخلى عنه يومًا، لكنه حتمًا سيقضى علىّ)). تركت لى هذه المرة حق البكاء وحدى.

الخصومة لا المحبة هى التى
تكشف لك نفسك وناسك

104

□ قال إنها هجرته، تعاملت معه بمنتهى البرود، ((كنت حاسس يا إبراهيم إنى قاعد قصاد الدكتورة اللى كانت بتكشف علينا فى الاختبارات الطبية لدخول المدينة الجامعية))، ضحكت جدًّا وأنا أتذكر خجلنا جميعًا ونحن نقف طابورًا من طلبة فى السابعة عشرة من أعمارهم، كلهم ريفيون يتقدم كل واحد فينا ليقف أمام طبيبة نصف شابة نصف عجوز، تجلس على مقعد أمام مكتبها الخشبى الصغير فى غرفة ضيقة مفتوحة النافذة الوحيدة، فتقول كلمة واحدة: ((اقلع)). فتتحرك اليد مرتعشة خجلانة فتفك سوستة البنطلون لتفتش الطبيبة بباغة بلاستيكية فى منطقتك الحساسة، تنظر بمنتهى الإهمال، بينما يذوب الطالب خجلاً حتى أكثرهم سفالة، أحس بالهشاشة، كانت طبيبة أمراض جلدية. حاولنا جميعًا أن ننسى وجه أمها بقية حياتنا فى المدينة الجامعية، كيف تذكرها الآن وهو يحكى لى عن حبيبته وهى تنفصل عنه، كان وجهها باردًا غريبًا محايدًا، كأنها تلك الطبيبة ذاتها بالتعالى والوظيفية التى أخبرتنى بها أنها لم تعد تحبنى، مشت وتركتنى وحيدًا فى الكافيتريا. أضاف بعد لحظة: ((حتى إن بنت الباردة سابتنى أدفع حساب النسكافيه اللى طفحته)). التفت لى: ((مكتوب علينا ندفع حساب كل شىء)) .

105

□ كنا نمشى وسط الأنقاض، الأسوار المحطمة والأسقف الساقطة والتراب المتكوّم والأثاث المحطّم والغرف التى سقط جدارها فتعرَّت محتوياتها أو ما بقى منها، ضرب الزلزال مصر وصوَّب على أضعف ما فيها، فقرائها وبيوت ريفها، فشكّلنا وفدًا لزيارة هذه القرى المضروبة بالزلزال لتقديم العون والإعانات، مجموعة من الزملاء والزميلات فى تجمع سياسى نقابى، خرجت معنا القرية كلها تقريبًا تشير وتلوّح وتنوح وتطلب وترجو وتصيح وتصرخ، والصبية يحوّلون من الكارثة حقلاً للعب والتفلُّت، الكل فى حالة من الغضب ضد النظام والحكم والحكومة، والناس تخشى أن تُحمِّل الدولة مسؤولية تهدُّم قريتها، وكل ما يلحّون عليه هو أن نرفع صوتهم بالمناشدة للحكومة بالرعاية، وقف أحدنا يخطب فوق تلّة، وتجمَّع حوله البعض، انفردت الزميلات بالستات لكى يشجعهن على البوح، اجتمع بعضنا مع العمدة والمجلس القروى، وسط هذا كله لاحظته منشغلاً عنّا ومبهورًا مبتهجًا وسعيدًا متألّقًا، سألته: ((فيه إيه؟))، أجاب زميلى مشيراً إلى زميلة لنا: ((ياه، فلانة جميلة جدًّا، ماكنتش متخيّل إنى بحبّها للدرجة دى)).


L.A

106

□ كان لدى هواية أمارسها كل يوم جمعة مع أحد جيرانى منذ أربعين عامًا، وهى الانتقال من جامع إلى آخر فى أثناء صلاة الجمعة، كل جمعة فى جامع، أو حضور الخطبة فى جامع والذهاب بعد الخطبة الأولى إلى جامع آخر والصلاة فيه. بعد فترة توقفت عن الهواية تمامًا، لكننى من يومها ظل قلبى يهفو إلى أى جامع يخرج منه المصلون فيجدون باعة قد وقفوا أمام بابه يقدّمون بضائعهم، عربات ليمون، جوافة، فرشة جرجير وبقدونس، ربطات صحف، يشترى منها المصلى ويمسك بيده طفل ويعودان إلى البيت.

107

□ دخلت إلى غرفته فى المستشفى فى هذا المساء أمسك قلبى بيدى، كنت قد تركته فى الظهيرة وقد علَّقوا محاليل فى ذراعه التى تركت شكَّات الإبر آثارها عليها، بزرقتها وحُمرتها وعلامات البلاستر، ثم وضعوا القسطرة المتدلية من جنبه على الفراش، ثم تصل بكيسها إلى أسفل السرير نتابع لون سائله، فإن كان مصطبغًا بالحُمرة نهشت قلوبنا سكاكين القلق، أبى الأنيق الشيك الذى لم يتكرمش بنطلون له فى حياته وحافظ على ربطة الكرافتة فى عنقه أكثر من سبعين عامًا منذ ارتداها بعدما خلع الكاكولا الأزهرية، أبى الذى لم يتّسخ حذاؤه أبدًا منذ تعلَّم المشى حتى ثمانين عامًا فى حياته بمطر مدينتها وطين شوارعها، كانت رقدته على سرير المستشفى برداء العناية مفتوح الطوق والظهر أمرًا أقسى علينا وعليه أن يُحتمل، لكننى حين دخلت كان أبى برداء المستشفى المفتوح، عفيًّا منفعلًا هادرًا يهتز طربًا وانفعالًا، رأيت أبى فى غرفته فى المستشفى واقفًا أمام التليفزيون المعلّق فى أعلى الحائط فى مواجهة السرير، كانت شاشته صغيرة لا توضّح لأبى الصورة كما يريدها، فنزل عن سريره حاملًا القسطرة بيده يرفعها عن الأرض ويقربها من ساقه، حتى لا تنفلت وتنخلع، وممسكًا بالعمود المعلّق فيه كيس

المحاليل، مستندًا إليه ويحيطه بذراعه المربوطة بالعمود، حتى لا تنفلت منه الكنلة أو إبرة الحقنة، تحرَّك حتى وصل إلى الشاشة فوقف أمامها ملتصقًا يتابع ملهوفًا ومستثارًا ومتوترًا وقلقًا وصائحًا زاعقًا شاخطًا متأوّهًا مباراة الزمالك.

اندفعت إلى الغرفة وقد خفت عليه حتى تبعثرت شظايا قلبى تحت قدميه، قلت له: ((معقولة يا بابا كده، تسيب سريرك)).

التفت إلىّ دون أن يلتفت إلى كلامى: ((إنت مابتشُفش الماتش ازاى، الزمالك كسبان واحد صفر)).

ثم أضاف وهو يعود ليمعن فى المباراة: ((الواد باسم مرسى ده كويس قوى)).

ضحكت وذهبت لأستلقى أنا على سرير المستشفى أتابع المباراة وأشكو إليه من أن حركته بالقسطرة وعمود المحاليل أمام الشاشة لم تسمح لى أن أشاهد الجون التانى.

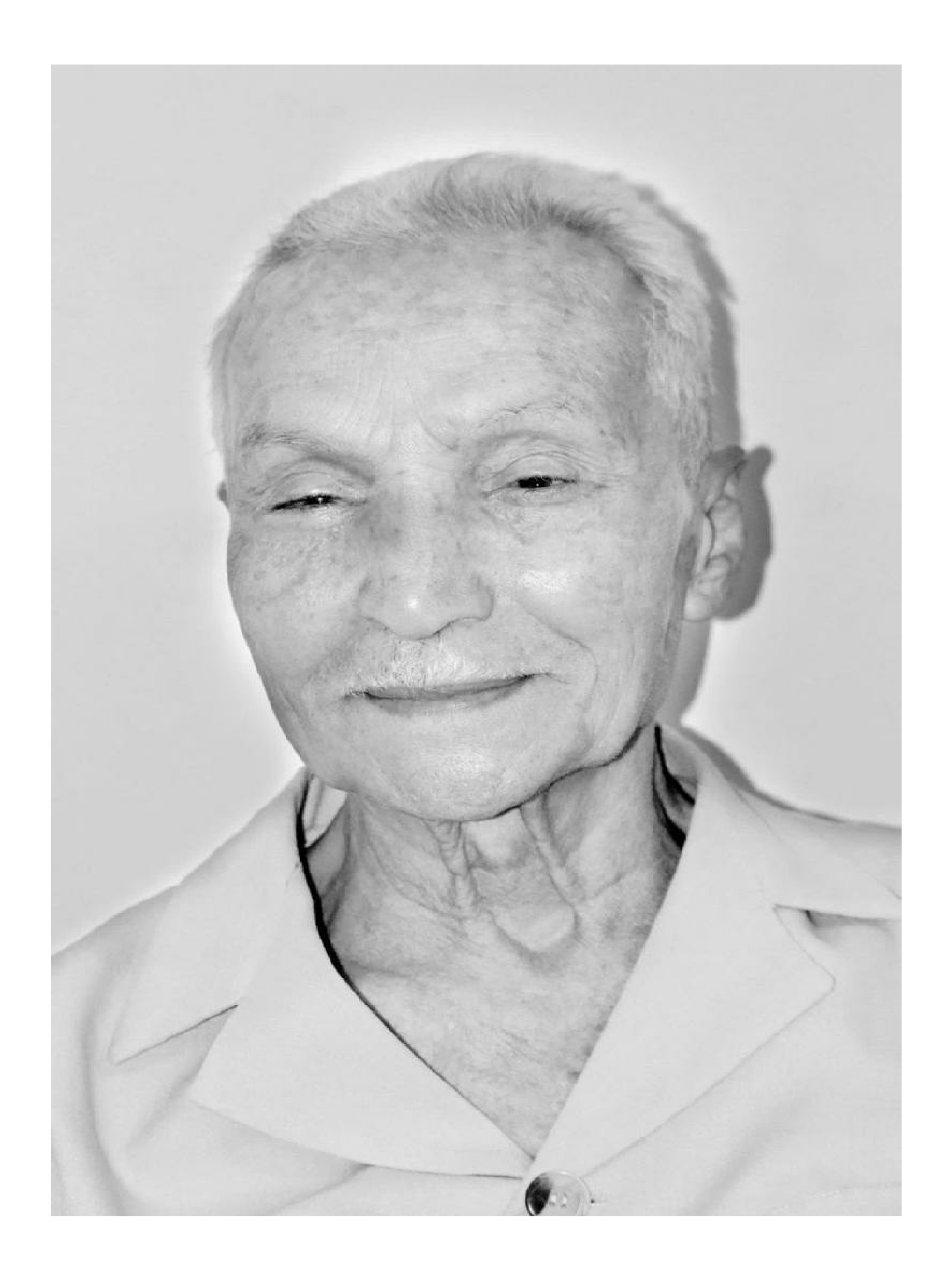
لا أحد فينا
إلا ويمشى
فى حاضره ممسكًا
طفولته فى يده،
يصحبها معه إلى
المستقبل



108

□ كان عبد الهادى الوشاحى فنانًا مثاًلًا نحاتًا فذًّا، كانت تماثيله ومنحوتاته منحة سماوية، لكننا كنا أقل قدرًا وأزحم فراغًا من أن نستحقه، لم يكن تنتابه ذرة شك فى عبقريته لكنه كان مرتابًا فى معرفة الآخرين بهذه الحقيقة الكونية؛ لهذا كان يتعامل معنا بترفع يصل إلى التعفف ويبلغ غالبًا مرحلة التأفف، نالنى استعلاؤه طبعًا حيث كان يرانى مجرد شاب يعمل فى الصحافة ويقول عن نفسه كاتبًا، لا أعرف متى قرر أن يقرأ كتاباتى ويتابع شغلى لكنه بعد عدة سنوات جمعتنا فيها ليالى القاهرة كثيراً، نادانى فجأة لأذهب ناحيته، وأشار إلىَّ بطريقة خديوية معتادة ثم منحنى هذه الجملة: ((ولد يا إبراهيم، إنت عبقرى)).

ثم أضاف فى منتهى الإنعام الملكى: ((زيى)).



109

□ يقف تحت فروع الشجر التى تظلّل عنه الحر، يختار دائمًا هذه الساعة، بعد العودة من صلاة العصر وقُبيل المغرب، يضع الخرطوم فى الحنفية عند رُكن الجنينة (مئة متر، لكنها مساحة كافية كى يجعل منها أبى جنّتَه)، يمرر الخرطوم من بين جذوع شجر الليمون والجوافة، ويقف فى تلك المنطقة بينهما ويبدأ فى الرى، يبدأ بشجر البرتقال ثم اليوسفى، والليمون والجوافة فى المرحلة الأخيرة، يمسك بالمنقرة الصغيرة يحفر لشَتْلة ورد، يرفع من الأسوار الطينية الصغيرة التى صنعها بنفسه، ليحولَ دون إرهاق الجذور بماء ليس لها، يلمس ثمرات البرتقال ويرفع حبّات الليمون ويتأكّد من خلوّ الجوافة من قَضم العصافير، يجمع الأوراق التى رماها الهواء أو عبث الأبناء أو الجيران، ويهدهد المرتفعات التى راكمها التراب، ثم يرفع الخرطوم فيرش أوراق الشجر، ليغسله من الغبار، وتنزلق قطرات الماء بأصوات حنونة وانسيابية رقيقة من بوز ورق الشجر، كأنها من فم أباريق الطبيعة، يقترب من شجرة الياسمين فيقتطف منها زهرة، وبذات المقص الصغير الذى يضعه فى جيبه يقطع زهرتىَ فُل، ثم يمسح كرسيًّا من البَلَل بفوطة مطويّة بعناية، ويجلس عليه يفتح المصحف يضع فيه زهرات الفل والياسمين، ويبدأ فى التلاوة.

